□ السَّيِّدُ الوَلِيُّ .. العلاءُ بن الحَضْرميّ الصَّحَابيّ ، □ فاتِحُ « البَحْرين » وجزيرة « دارين »

خالُ طلحةَ بن عبيد الله أحدِ العَشرة .

يذكر التاريخُ للعلاء سِفارتَه بَيْنَ النبي ﷺ وَمَلِك « البحرين » المنذر ابن ساوَى ، وإسلام مَلِك « البحريْن » وأهلِ « البحريْن » على يديْه . ويذكر له انتصاراته الحاسمة على أهل الرِّدَّة في « البحرين » ، على الرغْمِ من رَصَانة قوَّتِهم ، ومعاونة الفُرْس لهم .. ولهذا قصةٌ سنذكرها .. وفتح العلاءُ أيضًا « أسيافا » مِن « فارِس » .

ويذكر التاريخ للعلاء أنَّه كان أولَ قائدٍ مسلمٍ بعَث قائدًا مسلمًا في البحرِ للفتْح ، وهو « عَرْفَجَة بن هَرْثمَة » الذي فتح بعض جُزُر الخليج العربي ، وبعض مناطق « خوزستان » .

أمَّا قصةُ « دارين » ، واستنقاذ ونجدة العلاء للجارود بن المعلى ، ومَن ثبَتَ على إسلامه من البحرين ، فهذه:إنّ أهلَ « البحرين » لمّا ارتدُّوا عقَد الصِّدِّيقُ لواءَ « البحرين » للعلاء ، فسار إليها على طريق « الدّهْنَاء » ، وهي صحراء مخوفة ، خاليةٌ مِنَ الماء والمَرْعَى ، فلاقَى العلاءُ ورجالهُ مَشَقَّاتٍ كثيرةً عند قطْعها ، حتى أصبحتْ حياتُهم في خطرٍ عظيمٍ[1] ، ولكنَّ العلاءَ وَصَحْبَه تحمَّلوا تلك المشقّاتِ بإيمانٍ وَصبْرٍ عجيبيْن .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (٦ / ٢٣٢ – ٣٣٤) : « قد كان العلاءُ من ساداتِ الصحابة العلماءِ العُبَّاد مُجَابي الدعوة ، اتَّفق له في

(١) الطبري ٢ / ٥١٩ .

هذه الغزوة أنه نزل مَنْزِلًا ، فلم يستقرَّ الناسُ على الأرض حتى نَفَرتِ الإبلُ بما عليها : من زَادِ الجيش وخيامهم وشَرابِهم ، وبقوا على الأرض ليس معهم شيءٌ ، سِوَىٰ ثيابهم - وذلك ليلًا - ولم يقدروا منها على بعيرٍ واحدٍ ، فركِب الناسَ من الهَمِّ والغَمِّ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَف ، وجعل بعضُهُم يُوصي إلى بعضٍ ، فنادىٰ مُنادي العلاء ، فاجتمعَ الناسُ إليه ، فقال : أيُّهَا الناسُ ، ألستم المسلمين ؟! ألستمْ في سبيل الله ؟! ألستم أنصارَ الله ؟! قالوا : بلى . قال : فأبشِروا ، فوالله لا يَخذُلُ اللهُ مَن كان في مِثْلِ حالكم ، ونُودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر ، فصلَّى بالناس ، فلمَّا قَضَىٰ الصلاة جَثَا على ركبتَيْه وجثا الناسُ ، ونَصَبَ في الدعاء ورفع يديْه ، وفعل الناس مثلَه ، حتى طلعتِ الشمس ، وجعل الناسُ ينظرون إلى سراب الشمس يلمَعُ مرةً بعد أخرى ، وهو يجتهد في الدعاء ، فلمّا بلغ الثالثةَ إذا قد خلَق اللهُ إلى جانبهم غديرًا عظيمًا من الماء القَرَاح ، فمشى ومشى الناسُ إليه ، فشرِبوا واغتسلوا ، فما تعالى النهارُ حتى أقبلتِ الإبل من كلّ فجٍّ بما عليها ، لم يفقدِ الناسُ من أمتعتهم شيئًا ، فسقوا الإبل عَلَلًا بعد نَهَلٍ ، فكان هذا ممّا عايَنَ الناسُ مِن آياتِ الله بهذه السَّرِيَّة ، ثم لمّا اقترب من جيوش المرتدَّةِ - وقد حشدُوا وجمعُوا خلقًا عظيمًا - نزلَ ونزلوا[1]. وباتوا مُتجاورين في المنازل ، فبينما المسلمون في الليل ، إذْ سمِع العلاءُ أصواتًا عاليةً في جيش المرتدين ، فقال : مَنْ رجلٌ يكشفُ لنا خبرَ هؤلاء ؟ فقام عبد الله بن حذفٍ ، فدخل فيهم فوجدهم سُكَارىٰ لا يعقلون من الشراب ، فرجع إليه فأخبره ، فركِب العلاء مِن فوْرِه والجيشُ معه ، فكبسوا أولئك فقتلوهم قتْلًا عظيمًا ، وقلّ مَن هرب منهم ، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم ، فكانت غنيمةً عظيمةً جسيمةً ، وكان الحطم بن

(١) أيْ : خندق على قواته ، وخندق الكفارُ على أنفسهم ، في حصارٍ استمرّ شهرًا .

ضبيعة – أخو بني قَيْسِ بن ثعلبة ، مِن سادات القوم – نائمًا ، فقام دَهِشًا حين اقتحم المسلمون عليهم ، فركب جوادَه ، فانقطع رِكابُه ، فجعل يقول : مَن يصلحُ لي ركابي ، فجاء رجلٌ من المسلمين في الليل ، فقال : أنا أُصلحها لك ، ارفع رِجْلَك . فلما رفعها ضربه بالسيف ، فقطعها مع قدمه ، فقال له : أجْهِزْ عليَّ . فقال : لا أفعل . ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين ، يقتلونهم بكلِّ مَرْصَدٍ وطريق ، وذهب مَن فرّ منهم – أو أكثرهم – في البحر إلى « دارين » ، ركبوا إليها السُّفنَ ، ثم شرع العلاء في قسْم الغنيمة ونقْل الأثقال ، وَفَرَغَ مِن ذلك ، وقال للمسلمين : اذهبوا بنا إلى « دارين » لِنغزوَ مَن بها من الأعداء ، فأجابوا إلى ذلك سريعًا ، فسار بهم حتى أَتَى ساحلَ البحر لِيركبوا في السفن ، فرأى أنَّ الشُّقةَ بعيدة ، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداءُ الله ، فاقتحمَ البحرَ بفرسه وهو يقول : يا أرحمَ الراحمين ، يا حكيمُ يا كريمُ ، يا أَحَدُ يا صَمَدُ ، يا حيُّ يا مُحيي ، يا قيُّومُ ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إلٰه إلا أنت يا ربّنا . وأمر الجيشَ أن يقولوا ذلك ويقتحموا ، ففعلوا ، فأجاز بهم الخليجَ – بإذن الله – يمشون على مِثْلِ رمْلٍ دَمِثَةٍ ، فوقها ماءٌ لا يَغمِرُ أخفافَ الإبل ، ولا يصل إلى رُكَبِ الخيل ، ومسيرته للسفن يومٌ وليلة ، فقطعه إلى الساحل الآخر ، فقاتَل عَدوَّه وقهرهم ، واحتاز غنائمهم ، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر ، فعاد إلى موضعه الأول ، وذلك كلُّه في يومٍ ، ولم يتركْ من العدوِّ مخْبرًا ، واستاقَ الذراريَ والأنعامَ والأموال ، ولم يفقدِ المسلمون في البحر شيئًا ، سوى عليقةَ فرسٍ لرجلٍ من المسلمين ، ومع هذا رجعَ العلاءُ فجاءه بها ، ثم قسّم غنائمَ المسلمين فيهم ، فأصاب الفارسُ ألفَيْن ، والراجلُ ألفًا ، مع كثرة الجيش ، وكتب إلى الصِّدِّيق فأعلمَه بذلك ، فبعث الصديقُ يشكره على ما صنع ، وقد قال رجلٌ من المسلمين في مرورهم

في البحر – وهو عفيفُ بنُ المنذر – :

ألَمْ تَـرَ أنَّ اللهَ ذلّلَ بَحْـرَهُ وأنزلَ بالكفار إحدىٰ الجلائلِ
دَعَوْنَا إلى شَقِّ البحارِ فجاءَنا بأعجبَ من فَلْقِ البحارِ الأوَائلِ »

وذكَرَ العلّامةُ ابنُ كثيرٍ جلائلَ معجزاتِ الأنبياء ، فقال : « فمنها نجاةُ نوحٍ في السفينة بالمؤمنين ، ولا شكَّ أنَّ حمْل الماءِ للناس مِن غير سفينةٍ أعظمُ مِنَ السُّلوك عليه في السفينة ، وقد مشى كثيرٌ من الأولياء على مَتْنِ الماء ؛ وفي قصَّةِ العلاء – صاحبِ رسول الله ﷺ – ما يدلُّ على ذلك : روى منجابُ ، قال : غَزَوْنَا مع العلاء بن الحضرمي « دارين » ، فدعا بثلاثِ دَعَوات ، فاستُجيبَتْ له ، فنزلنا منزلًا فطلب الماءَ فلم يجدْه ، فقام فصلَّى ركعتيْن وقال : اللهمَّ إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نقاتل عدوَّك ، اللهمَّ اسقِنَا غَيْثًا نتوضأ به ونشرب ، ولا يكون لأحدٍ فيه نصيبٌ غيرنا . فسرنا قليلًا ، فإذا نحنُ بماءٍ حين أقلعتِ السماء عنه ، فتوضأنا منه وتزوَّدنا ، وملأتُ إداوتي وتركتها مكانها حتى أنظر : هل استُجِيبَ له أم لا . فسرنا قليلًا ثم قلتُ لأصحابي : نسيتُ إداوتي . فرجعتُ إلى ذلك المكان ، فكأنه لم يصبْه ماءٌ قطُّ ، ثم سِرْنا حتى أتيْنا « دارين » ، والبحرُ بيننا وبينهم ، فقال : يا عليُّ يا حكيم ، إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نقاتل عدوَّك ، اللهمَّ فاجعلْ لنا إليهم سبيلًا . فدخلنا البحرَ فلم يبلغ الماء لُبودَنا ، ومشيْنا على مَتْنِ الماء ولم يبتلَّ لنا شيءٌ ... وذكر بقيّةَ القصة . فهذا أبلغُ من ركوب السفينة ؛ فإنَّ حمْل الماء للسفينة معتادٌ ، وأبلغُ من فَلْق البحرِ لِمُوسىٰ ، فإن هناك انحسرَ الماءُ حتى مَشَوْا على الأرض ، فالمُعْجِزُ : انحسارُ الماء ، وهاهنا صار الماء جسَدًا يمشون عليه كالأرض ، وإنما هذا منسوبٌ إلى النبي ﷺ وبَرَكتِهِ . انتهىٰ ما ذكره بحروفه فيما يتعلق بنوحٍ عليه السلام . وهذه القصة التي ساقها شيخنا ذكَرَها الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه

« الدلائل » ، مِن طريق أبي بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي كُريبٍ ، عن محمد ابن فُضيل ، عن الصَّلت بن مَطر العَجَلي ، عن عبد الملك ابن أخت سهمٍ ، عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء بن الحضرمي ... فذكره . وقد ذكرها البخاري في التاريخ الكبير من وجهٍ آخر . ورواها البيهقي من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان مع العلاء وشاهد ذلك . وساقها البيهقي من طريق عيسى بن يونس عن عبد الله ، عن عَوْنٍ ، عن أنس بن مالك قال : أدركتُ في هذه الأُمَّة ثلاثًا ، لو كانت في بني إسرائيل لَمَا تقاسَمها الأمم . قلنا : ما هُنَّ يا أبا حمزة ؟ قال : كنا في الصفة عند رسول الله ﷺ ، فأتتْه امرأةٌ مهاجِرةٌ ومعها ابنٌ لها قد بلغ ، فأضاف المرأة إلى النساء ، وأضافَ ابنها إلينا ، فلم يلبث أنْ أصابه وباءُ المدينة ، فمرِض أيّامًا ثم قُبِضَ ، فغمَّضه النبيُّ ﷺ ، وأمَر بجهازه ، فلما أردنا أن نُغسّله قال : « يا أنسُ ، ائت أمَّه ، فأعْلمها » . فأعلمتُها . قال : فجاءتْ حتى جلست عند قدميْه ، فأخذت بهما ثم قالت : اللهمَّ إني أسلمت لك طوْعًا ، وَخَلَعْتُ الأوثان ، فلا تُحمِّلني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحمله . قال : فوالله ما انقضىٰ كلامُها حتى حرَّك قدميْه ، وألقىٰ الثوبَ عن وجهه ، وعاش حتىٰ قبَضَ اللهُ رسولَه ﷺ ، وحتىٰ هَلَكَتْ أُمُّه . قال أنس : ثم جهَّز عمر بن الخطاب جيشًا ، واستعمل عليهم العلاءَ بن الحضرمي . قال أنس : وكنت في غَزاته ، فأتينا مغازينا ، فوجدنا القوم قد بدروا بنا فعفوا آثار الماء ، والحرُّ شديد ، فجَهَدنا العطشُ ودوابَّنا ، وذلك يوم الجمعة ، فلمّا مالتِ الشمس لغروبها صلى بنا ركعتيْن ، ثم مدَّ يده إلى السماء ، وما نرى في السماء شيئًا . قال : فواللهِ ما حطَّ يده حتى بعث الله ريحًا ، وأنشأ سحابًا وأفرغتْ ، حتى ملأتِ الغدر والشِّعاب ، فشربنا وسقينا ركابنا واستَقَيْنا . قال : ثم أتينا عدوَّنا وقد جاوَزَ خليجًا في البحر إلى جزيرة ،

فوقف على الخليج وقال : يا عليُّ يا عظيمُ ، يا حليمُ يا كريمُ . ثم قال : أجيزوا بسمِ الله . قال : فأجَزْنا ، ما يبُلُّ الماءُ حوافِرَ دوابِّنا ، فلم نلبث إلا يسيرًا فأصبنا العدوَّ عليه ، فقتلْنا وأسرنا وسبيْنا ، ثم أتينا الخليجَ ، فقال مِثلَ مقالتِهِ ، فأجزنا ما يبُلُّ الماء حوافر دوابنا . ثم ذَكَر موتَ العلاء ودَفْنَهم إيّاه في أرضٍ لا تقبل الموتى ، ثم إنهم حفروا عليه لينقلوه منها إلى غيرها ، فلم يجدوه ثَمَّ ، وإذا اللحدُ يتلألأ نورًا ، فأعادوا الترابَ عليه ثم ارتحلوا . فهذا السياق أتم »[1].

لله دَرُّكَ أيُّهَا القائد الولّي ...مُجابَ الدعوةِ عالي الهمة ! لله دَرُّكَ يا علاء .. تحثُّ السيرَ لنجدة إخوانك ممّن ثبتوا على إسلامهم في « جواثا » ، أول قرية أقامت الجمعة مِن أهل الرِّدَّة .. القرية التي حاصرها المرتدُّون وضيَّقوا عليها ، حتى منعُوا المسلمين من الأقْوات وجاعُوا جُوعًا شديدًا ، وقال عبد الله بن حذف – وقد اشتدَّ به الجوع – :

ألا أبْلِغْ أبا بكـرٍ رسـولًا ... وَفِتْـيانَ المـدينة أجْمعينـا
فهـلْ لكم إلى قومٍ كِرامٍ ... قُعود في « جوَاثا » مُحصَرينا
كأنَّ دماءَهم في كلِّ فـجٍّ ... شعاعُ الشمس يغشىٰ الناظرينا
توكَّلْنـا على الرحمـٰن إنَّا ... وَجَـدْنَا الصـبرَ للمتوكِّلِينـا

لله دَرُّكَ مِن قائدٍ وليٍّ ! يذلل الله له البحرَ كما ذلَّله لنوح النبيِّ .. ويُفاجئ أهلَ الشرك السُّكَارىٰ ، ويُبيّتهم بتكبيره قبل سيفه ..

كم أشرقتْ في سماءِ المَجْدِ راياتُ ... ورُتِّلَتْ في رِحَابِ الخير آياتُ
وكان رَائِدنَا يحـدُو مسيرتنـا ... اللهُ غايتُنـا الرحمـٰنُ لا اللَّاتُ
ودولةُ الحقِّ بالإسلام تحكُمُنا ... واليومَ تحكُمُنـا ظلمًا دُوَيْلاتُ

---

(١) البداية والنهاية ٦ / ٢٦٤ – ٢٦٥ .

تقـودُ أمَّتَنَـا للحـربِ غـانيةٌ ... والجيشُ في الزَّحْفِ قد ألْهَتْهُ مغْنَاةُ
وكمْ لَعُوبٍ تهاوَوْا عند أرجلها ... كما تهاوتْ على نارٍ فراشاتُ
الزِّقُّ والرِّقُّ والمِزْمَـارُ عُدَّتُنـا ... والخَصـمُ عُـدَّتُه عِـلْمٌ وآلات
وَشِرْعَةُ اللهِ في القرآن نهجُرها ... وَشِرْعَةُ الخَصْمِ تلْمُودٌ وتوْراةُ
وَعُدَّةُ الخَصمِ صاروخٌ وطائرةٌ ... ونحـنُ عُدَّتُنَـا الكـبرَى قراراتُ
سفينةُ الناسِ ضلَّتْ لا شراعَ لها ... والشَّعْبُ حار وما للشعبِ مَنجاةُ
وَجِيلُنَـا ضـاعَ في تيهٍ يُمـزِّقُهُ ... وَدَرْبُـهُ ضَـلَّ قـد دَكَّتْهُ مأساة
الجهلُ والفقرُ والطغيانُ يَسْحَقُهُ ... والكأسُ والجنسُ مَسْلاةٌ وَمَلْهَاةُ
وباطـنُ الشعـب آلامٌ مُبرِّحـةٌ ... وظـاهرُ الشعـب أفراح وزينات
قد هدّهُ الجوعُ وانهارتْ عزائمُهُ ... وقـادةُ الشَّعْـبِ بالأكباد تقتاتُ
كم بدّدوا المال هَدْرًا في مباذِلِهِمْ ... وفي ليالي الخنَا ضاعتْ مُروءاتُ
في السلم كأسٌ وسيجارٌ وغانيةٌ ... وساحةُ الحربِ في الهَيْجَا إذاعاتُ
وقادةُ الشَّعْبِ أمواتٌ بلا كَفَنٍ ... فَهَلْ يُحَرِّرُ أرضَ القدسِ أمواتُ
يا سوْأَةَ العمرِ في تاريخ أمَّتِنا ... لقدْ بدَتْ منكمْ للعينِ سَوْءَاتُ
مَنْ يزرع اليومَ شرًّا فالحصادُ غدًا ... وَقُـدرةُ اللهِ للطغيانِ مِذْراةُ[1]

الصحابيُّ الزاهدُ : عتبةُ بنُ غَزْوان ، فاتحُ جنوبِ العراق والأهوازِ ، وأوّلُ مَن مَصَّرَ البصرة :

كان رضي الله عنه أحَدَ السابقين إلى الإسلام ، وكان مِن فرسان المهاجرين وفدائيِّيهم ، وقاتَلَ عتبةُ تحت لواء النبي في كل غزواته . ويذكر التاريخُ لعُتبة أثَرَه الكبير في إعادة المرتدين من أهل « عُمان » و« مهرة » إلى

(١) من قصيدة « باسم الشعب .. ولا يدري » ، من ديوان : « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم .

الإسلام ، وقاتل رضي الله عنه تحت لواء سعدٍ في القادسية وفي المعارك الأُخرى ، حتى تمَّ للمسلمين فَتْحُ « المدائن » .

عندما أخذ سعدٌ يجهّز لاحتلال المدائن ، قدّر الخليفة عمرُ أنَّ الفُرْس سيستميتُون في الدفاع عنها ، فقرّر أنْ يعمل على تشتيت طاقاتهم ، ومَنْع وصول الإمدادات ، المتوقع أن يصلهم أكثر من « الأهواز » وناحية شرقي « شطِّ العرب » . فكلّف عمر سعدًا أن يبعث عتبة بن غزوان إلى المكان الذي أُنشِئَت عليه مدينة البصرة ، وكانوا يسمّونه « أرض الهند » ، وقال عمر عن عتبة : « فإنَّ له مِن الإسلام مكانًا ؛ فقد شَهِدَ بدرًا ، وقد رجوتُ جزءَه من المسلمين »[١] .

القائدُ الفاتِحُ :

« وحين وجّه عمرُ عُتبةَ إلى منطقة البصرة ، أوصاه : « يا عتبة ، إني قد استعملتُك على أرض الهند ، وهي حوْمَةٌ من حَوْمة العدوّ ، أرجو أنْ يكفيَك الله ما حولها ويُعينك عليها ، وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدَّك بعَرْفَجةَ بن هَرْثمة ، وهو ذو مجاهدةٍ ومكايدة للعدو ، فإذا قَدِمَ عليك فاستشرْه ، وادعُ إلى الله ، فَمَنْ أجابك : فاقبلْ منه ، وَمَنْ أبىٰ : فالجزية ، وإلَّا : فالسيف »[٢] ، وفوْر وصول عُتبة إلى المكان الذي حدّده عمر ، بَلَغَه تواجد قواتٍ للفرْس تبلغ أربعة آلاف مقاتلٍ ، ووصل صاحبَ الفرات خبرُ عُتبة ، وقال له جُنده : إنّ هاهنا قومًا معهم راية ، وهم يريدونك . فأقبَلَ في أربعة أساورٍ ، فقال : ما هم إلا ما أرى[٣] ، اجعلوا

---

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٦ .

(٢) الطبري ٣ / ٩٢ ، وابن الأثير ٢ / ١٨٨ ، والاستيعاب ٣ / ٢٧ - ١ .

(٣) وكان عددُ المسلمين ثمانمائة رجلٍ .

في أعناقهم الحبالَ وائْتوني بهم . هكذا بكل صَلَفٍ وغرورٍ ! فجعل عتبةُ يزجل ، وقال : إني شهدتُ الحربَ مع النبي ﷺ ، حتى إذا زالتِ الشمس قال : احملوا . فحملوا عليهم ، فقتلوهم أجمعين ، فلم يبقَ أحدٌ إلا صاحِبُ الفراتِ ، أخذوه أسيرًا .

هكذا الرجولةُ والفروسيةُ يا عتبة .

وقام الزاهدُ الناسك عتبةُ يخطب في جنده : « إنَّ الدنيا قد تصرّمتْ وولّت حذّاءَ ، ولم يبقَ منها إلا صبابةٌ كصبابةِ الإناء ، أَلَا وإنكم منتقِلون منها إلى دار القرار ، فانتقلوا بخير ما بحضْرتكم ، وقد ذُكر لي : لو أنَّ صخرةً أُلقيتْ مِن شفير جهنمَ هوتْ سبعين خريفًا ، ولَتملأنَّه ، أوَ عجبتم ؟! ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعيْنِ مِن مصاريعِ الجنة مسيرة أربعين عامًا ، وَلَيَأْتِيَنَّ عليه يومٌ كظيظ بزحام ، ولقد رأيتُني وأنا سابعُ سبعةٍ مع النبي ﷺ ، ما لنا طعامٌ إلا وَرَق السَّمر ، حتى تقرّحتْ أشداقُنا ، والتقطتُ بُرْدَةً فشققتُها بيني وبين سعدٍ ، فما منّا – من أولئك السبعة – مِن أحدٍ إلّا وهو أميرُ مِصرٍ ، وسيُجرِّبون الناس بعدنا » .

نعم ، حَفِظ عتبة وصِيَّة عمر له : « قد صحبتَ رسولَ الله ﷺ فعزَزْتَ به بعد الذّلة ، وقويتَ به بعد الضعف ، حتى صرتَ أميرًا مسلّطًا وَمَلِكًا مطاعًا ، تقول فيُسمع منك ، وتأمر فيطاعُ أمرُك ، فيا لها نعمةً ! إنْ لم ترفعْك فوق قدْرك ، وتبطِّرك على مَنْ دونك ، احتفظْ من النعمة احتفاظَك من المعصية ، وَلَهِيَ أخوفهما – عندي – عليك أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطةً تصير بها إلى جهنم ، أعيذُك بالله ونفسي من ذلك ، إن الناس أسرعوا حين رُفعتْ لهم الدنيا فأرادوها ، فأرِدِ اللهَ ولا تُرِدِ الدنيا ، واتَّقِ مَصَارِعَ الظالمين » . ولقد حفظ عُتبة وصية الخليفة ،

ووعاها ورعاها ، فَهَا هو يختطُّ البصرة ، ولكنه لم يختطَّ لنفسه فيمن اختطَّ من المهاجرين ، فمات رضي الله عنه وهو لا يملك دينارًا ولا دارًا .. ها هو فاتح « الأهواز » يستعفي عمرَ من منصبه ، فيأبى عمر أن يعفيه .

قِتَالٌ آخرُ مِقدارَ جَزْرِ جَزُورٍ :

« استمرَّ تصيُّد المتواجدين من الفرس عند مصبِّ دِجلة وحوْل شطِّ العرب ، حتى لا يدعموا الفرْس ويمدُّوا « المدائن » التي يريد سعد الانقضاضَ عليها . وَبَلَغَ أبا غزوان عتبة أنّ في « الأبلة » خمسمائة مقاتل من سادات الفرس وخيرة محاربيهم وزعمائهم ، وهم الذين يطلق عليهم : « أساورة » ، ففرض عليها عتبةُ الحصار شهرًا ، بعده خرج الأساورة وهاجموا المسلمين ، فناهضهم عتبةُ ، وجعل قطبةَ بن قتادة السدوسي وقسامة بن زهير المازني في عشرة فوارس ، قال لهما : كونا في ظهرنا ، فتُرُدّانِ المنهزم وتمنعانِ مَنْ أرادنا مِن ورائنا . ثمَّ اقتَتَلوا مقدارَ جزْرِ جزورٍ ، وقسمها ، حتى منحهم اللهُ أكتافهم ، وولَّوْا منهزمين حتى دخلوا المدينة ، ورجع عتبة إلى عسْكره »[1].

كانت « الأبلة » أعظمَ مَسَالح الفرْس البحرية عند مصبِّ النهريْن ، بالإضافة إلى كونها المرفأ الوحيد لكلّ السفن الوافدة من الهند والصين ، وكلّ أقطار الشرق الأقصى ، وبعد أنْ عاد المنهزمون – من الأساورة – إلى مدينة « الأبلة » ، فرض عليها عتبةُ حصارًا شديدًا ، وانتاب حامية « الأبلة » الرعبُ من العرب المحاصِرين لها ، فتسلّلوا منها هَرَبًا ، بعد أن حملوا معهم ما خفّ مِنَ الأموال ، فدخل المسلمون المدينة . ويروي الطبريُّ أن نافع بن الحارث قَتَل يوم « الأبلة » تسعةً مِنَ الفُرْس ، وَقَتَلَ أبو بكرةَ ستةً ، فعادتِ

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٩٤ .

« الأبلة » إلى المسلمين سنة أربع عشرة من الهجرة ، والمسلمون على أبواب « المدائن » .

وذكر المؤرّخون أنَّ جيش عتبة صار لا يعلمُ بقوةٍ حربيةٍ للفرْسِ في الجنوب ، إلَّا وقتلها وفرّق جمعها ؛ فَمِن ذلك أن عُتبة بلغَه أنَّ مرزبان « دست ميسانَ » ، القريبةِ من الأبلة – لديه جموعٌ من المحاربين الفرْس ، فخشي أن يوجِّههم نحو « المدائن » ، فسارع إليه وهاجمه ، ثم قتله بعد أن دمّر جيشه .

هذا هو عُتبة الزاهد .. وهكذا فليكنِ القادة ... فما أبعدَ الفرْقَ بين أمسِ واليوم !!

اليومَ يقول الفارغون : « كنتُ لي ذنب سألت الله ألا يغفره » ... « الدنيا سيجارة وكأس » .

ويقول ناصرُهم – في رسالة لحسين ، التقطتها الإذاعة الإسرائيلية – : « دمّرنا ثلثي طائراتِ العدو .. طائراتنا فوق تلّ أبيب » ، التوقيع : « سلمي » ...

ويقول مذيعهم أحمد سعيد : « بشرىٰ يا عربُ ، الطائراتُ تتساقطُ كالذباب » . وطائراتُنا مدمرةٌ في المطارات !!

قالت بنت « ديّان » في كتابها « جندي مِن إسرائيل » – الذي طُبع بأكثر من لغة – : « كانت أنباء الجبهة الجنوبية – مصر – تملؤنا رُعبًا ... فلمّا أتانا الحاخام – ومعه نسخة مِنَ التوراة – استحال خوفنا أمنًا ، بينما كانت إذاعة العدو – تعني الإذاعة المصرية – تقول : قَاتِلْ مِن أجل الربيع ... من أجل الحياة ... قاتلْ وأم كلثوم معك في المعركة ... قاتلْ وعبد الحليم معك في المعركة ...!!

كان « لحنُ » الحياةِ فينا أَذانًا ... يتغنّى بـه الأبـاةُ الصِّـيدُ
يملئـون الوجـودَ برًّا ونـورًا ... حينَ يصحُو على الأذانِ الوجودُ
وإذا اللَّحـنُ صيحـةٌ مِـن رقيعٍ ... وإذا الترسُ في المعامِعِ « عُودُ »
فَغَدَتْ أمتي معَ « اللَحن » سَكْرَى ... يُرسِلُ « اللحنَ » فاجرٌ عربيدُ
كان أمسُ الأباة مَشْرِقَ مجدٍ ... وإذا اليومَ في حِمانا اليهـودُ
سـادَنا قـادةُ الهزيمـةِ زُورًا ... كيفَ نرضَى وا ذلّتا أن يسودوا ؟!
ليسَ فيهمْ « قتيبةٌ » أو « صلاحٌ » ... أو « هشامٌ » وليسَ فيهم « رشيدُ »
هجروا المصحفَ الطهورَ وحارُوا ... و« ابنُ دايـانَ » قـادهُ التلمـودُ
فـأَذلّ العـدوُّ مِنّـا جِبـاهًا ... وتلاشَى مِـن راحتيْنا الحـديدُ
واستُبيحـــتْ ديارُنـــا لعـــدوٍّ ... وسـلاحُ الحُكّـامِ فينـا وُعودُ
مسخُـوا الحـقَّ والحقيقـةَ لمّا ... صارَ صوتُ الإعلامِ فيهمْ « سعيدُ »[1]
يزرعُ البحـرَ والهـواءَ وُعـودًا ... لا يبالي أن لا يكـونَ حصـيدُ
شِرْعَةُ الزورِ والضلال « مُذيعًا » ... أنَّ يومَ الهـوانِ والذلِ عـيدُ
ووجـوهُ الطغـاةِ بالشـرِّ بيضٌ ... ووجـوهُ الهـداةِ بالحـقِّ سُـودُ
ذَلَّ مَـن يزعمُ الهزيمـةَ نصرًا ... تتهـاوَى مِـن راحتيْهِ البنودُ[2]

عَاصِمُ بنُ عمـرٍو التميمّي فاتِحُ « سجسْتانَ » ، وقـائِدُ كتيبةِ الأهوال ، ومُسَمِّلُ الأفيال :

تُـريقُ سُيوفُـه مُهَجَ الأعـادي ... وكـلّ دمٍ أراقَتْـهُ جُبَـارُ[3]

قاتل عاصمٌ تحتَ لواءِ خالدٍ في حروب الردة ، وأبلَى فيها بلاءً حسنًا ،

---

(١) إشارة إلى أحمد سعيد ومَدرسته الغوغائية .
(٢) « أمس واليوم » ليوسف العظم .
(٣) الجُبار : الذي لا يُطالب به .

ووجّهه خالد أمام قواته ، على رأس قوةٍ من المسلمين إلى العراق ، وقاتل رضي الله عنه بقيادةِ خالد في العراق ، وَقَتَلَ في معركة المذار « الأنوشجان » ، الساعِدَ الأيمن لقارن ، قائد قوات فارس . وفي معركة دَوْمة الجَنْدل بعثه خالد على رأس مفرزة من الفرسان لأسْر أكيدر بن عبد الملك ، أمير دومة الجندل ، فنجح عاصم في أسره ، وسلّمه إلى خالد ، فقتله جزاءَ غدْره بالمسلمين .

وقاتل عاصم تحت لواءِ أبي عبيد الثقفي وكان قائدًا لقوْمه بني تميم ، وبعد معركة كسكر وجّهه أبو عُبيد إلى نهر « جور » فهزم الفرس[١] .

وفي معركة الجسر حمىٰ المثنَّى وعاصم – مع أشجع أبطال المسلمين – الانسحاب ، حتى عقدوا جسرًا فعبر المسلمون عليه ، وعبر المثنَّى وعاصم وأصحابُهم في آثارهم ، وبذلك أنقذ المثنى وعاصم ورجالُهما أرواح الآلاف من المسلمين .

وتحت لواءِ المثنى ، وفي معركة « البويب » كان عاصم يقود المجرّدة[٢] ، وهو واجب لا يُعهد به إلا لفارسٍ مقدام ، ولمّا انهزم الفرس ، كان عاصم أحد القادة الذين قاموا بالمطاردة ، فكان أول مَن دخل حصن الفرس في « ساباط » هُو عاصم[٣] ، وكان لِتغلْغُله العميق في أرض الفرس أثرٌ بالغ على تحطيم معنويات الفرس ، ورفْع معنويات العرب .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٣٧ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٤٥ .
(٣) الطبري ٢ / ٦٥٣ .

في القادسية :

أثناء المسير إلى القادسية كان عاصم قائدًا للساقة ، وكان المسلمون في أشدِّ الحاجة إلى الموادِّ الغذائية ، لذلك أرسل سعد عاصمًا إلى « مَيْسان » في غارةٍ غَنَم فيها بعض الماشية ، فأتى بها إلى سعد ، فقسّمها على الناس ، فأخصبوا أيامًا[١].

وقُبيل معركة القادسية جرتْ مفاوضات بين رجالاتِ سعد وبين كسرى يزدجرد ، وفي نهاية المفاوضات غَضِبَ كسرىٰ على المفاوضين العرب ، فقال لرجاله : « ائتوني بِوِقْرٍ من ترابٍ ، واحملوه على أشرف هؤلاء » . فتقدم عاصم ليحمل على أصحابه التراب قائلًا : « أنا أشرفهم .. أنا سيّدُ هؤلاء » . ثم حمل التراب على عنقه ، وخرج إلى راحلته فركبها ، وأخذ التراب معه ، وقال لسعد : « أبشرْ ، فوالله لقد أعطانا الله أقاليدَ مُلْكِهم »[٢]. وكانت نتيجة تلك المفاوضات نصرًا معنويًّا للمسلمين على الفُرْس ؛ إذْ قال كسرى : « ما كنتُ أرى أنّ في العرب مثلَ رجال رأيتهم دخلوا عليّ !! ما أنتم بأعقلَ منهم ولا أحسنَ جوابًا منهم »[٣].

وعندما نشب القتال بين المسلمين والفرس في القادسية ، برزَ عاصمٌ في اليوم الأول من أيامها بروزًا جعله سيدَ الموقف بدون منازِع ؛ كان أحدَ ذوي الرأي والنجدة ، الذين أرسلهم سعد لتحريض الناس على القتال ، فقام عاصم في « المجردة » ورجالها أوَّلَ مَن يلاقي العدو ؛ وقال يخاطبهم : « إنَّ هذه البلاد قد أحلَّ الله لكم أهلَها ، وأنتم تنالون منهم منذُ ثلاث سنين ما

---

(١) الطبري ٣ / ١٤ .
(٢) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٧٦ .
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ١٩ .

لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلَوْن ، والله معكم إن صبرتم ، وصدقتموه الضربَ والطعنَ »[١]. ووقف خطيبًا في آخرين ، وقال : « يا معاشر العرب ، إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العَجَم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوطَ منكم على آخرتكم ، ولا تُحدثوا اليوم أمرًا تكونون فيه شيْنًا على العرب غدًا »[٢].

وكان ممّا قال : « اللهَ اللهَ ... اذكروا الأيامَ وما منحكم اللهُ فيها ... أَوَلا ترون أن الأرض وراءَكم بسابسُ قِفار ، ليس فيها خمرٌ[٣] ولا وزرٌ يُعقل إليه ولا يمتنع به ؟! اجعلوا الآخرة همَّكم » . وخرج عاصم أمامَ مواقع بني تميم وهو يقول :

قد عَلِمَتْ بيضاءُ صفراءُ اللَّبُبْ ... مِثْلُ اللُّجَيْنِ إذْ تغشَّاهُ الذَّهَبْ
أني امرؤٌ لا مَنْ يُعينُه السَّبَبْ ... مِثلي على مِثلكِ يُغريهِ العَتَبْ[٤]

فطارد رجلًا من العجم فهرب منه ، وتبعه عاصم حتى خالط صفَّهم ، فالتقىٰ بفارسٍ معه بغلٌ ، فترك الفارسُ البغلَ ، واعتصم بأصحابه فاحتمىٰ بهم ، واستاقَ عاصم البغل والرحْلَ ، وكشَف عن الغنيمة ، فإذا ذلك الرجل كان طبّاخَ رستم ، وإذا ذلك الذي كان معه : طعامُه من الأخبصة والعسل المعقود ، فتغدّىٰ عاصم وَمَنْ معه – يومها – بغداء رستم . وزحف المسلمون ، فحملتِ الفِيَلة على الميمنة والميسرة ، وأحجمتْ خيول المسلمين ،

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٤ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٤٦ .
(٣) غِطاء .
(٤) بيضاء : يقصد بها فرسه ، ومعنى البيت : ثقتُه بنفسه أنه يدخل بدون وسيلةٍ للقتال ، كلّما عتبوا عليّ في شدتي عليك يُغريني ذلك بكِ .

وبقي المشاة يقاتلون وحدهم ... في ذلك الموقف العصيب أرسل سعد إلى عاصم ، وقال له : يا معشرَ بني تميم ، ألستم أصحاب الخيل والإبل ؟! أما عندكم لهذه الفيلة مِن حيلة ؟! فقال عاصم : بلىٰ والله . ثم نادىٰ عاصم في قومه ، فجمَعَ أفضل مَن في بني تميم من الرماة ، وآخرينَ لهم خفّة ومهارة في القتال ، ووضع خطته على أساس مُشاغَلة ركبانِ الفيلة ، ثم مهاجمتها من الخلف في غفلة منهم . قال لهم : « يا معشر الرماة ، ذبُّوا ركبانَ الفيلةِ عنهم بالنبل » . وقال : « يا معشرَ أهل الثقافة ، استدبروا الفيلة فقطِّعوا وُضُنَهَا »[١] . وخرج معهم يحميهم ويقودهم ، فَشَقُّوا طريقهم نحو الأفيال التي تهاجم بني أَسَد ، وأقبل رجاله على الفيلة ، فأخذوا بأذنابها وقطّعُوا وضنَهَا ، فارتفع عُواؤها ، وألقتْ بركبانها ، وكان كلما سقط صندوقٌ بمن فيه ، هجم عليهم المسلمون فقتلوهم ، فنفسَ عن بني أسد وبجيلة ، وَرَدّتْ تميم هجوم العجم إلى مواقفهم الأولى ، وكان عاصم بن عمرو في ذلك اليوم – بحقٍّ – عادية الناس وحاميهم[٢] .

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية – لما أعادت فيَلة الفرس هجومها الكاسح ، يقودها الفيل الأبيض – حمل عاصم والقعقاع ، فوضعا رمحيْهما معًا في عيني الفيل الأبيض ، فتراجع الحيوان وطرحَ سائسه ودلّى مِشْفَره ، فضربه القعقاع بالسيف فرمى بمشفره ، ووقع الفيل لجنبه ، فقتلاً مَن معه مِن الفرْس[٣] .

فللَّهِ دَرُّ عاصم مُسمل عينِ الفيل !! أيّ شجاعةٍ تفوق هذه الشجاعة ؟!

---

(١) الأحزمة .
(٢) الطبري ٣ / ٥٠ .
(٣) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٨٥ .

ولما هربتِ الفيلة أخذ أبطال المسلمين يضيِّقون الخناق على الفرس ، وكان أبرز هؤلاء الأبطال : عاصم . وفي ليلة « الهرير » : هزم عاصمٌ قائد الفرس الذي كان بإزائه ، وسحَق قواته[١].

ولله دَرُّ مَن قال عن عاصم : كانت له في القادسية مقاماتٌ محمودة وبلاء حسن[٢].

في فتح المدائن :

لما قرَّر سعد أن يعبر النهر بقواته على ظهور الخيل سباحةً ، كان لا بُدَّ له من قوةٍ كافية تعبر النهر أولًا ، لاحتلال رأس جِسْرٍ في الجانب الثاني من النهر ، وبذلك تحمي عبور قوات القسْم الأكبر من قوات المسلمين ، فقال سعد : « مَنْ يبدأ ويحمي لنا « الفِراضَ »[٣] ، حتى نلاحق به الناس ، لكي لا يمنعوهم من الخروج ؟ » . فتطوّع عاصم ، وتطوَّع معه ستمائةٌ من أهل النجدة ، فأمّر سعد عاصمًا عليهم ، فساروا ، حتى إذا بلغوا شاطئَ دجلة ، قال عاصم لأصحابه : « مَنْ ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولًا في هذا البحر ، فنحمي الفراض من الجانب الآخر ؟ » فانتدب له ستون فارسًا ، وهم الذين أُطلق عليهم اسم « كتيبة الأهوال » ، فجعلهم نصفَيْن على خيولٍ إناثٍ وذكورٍ ليكون أساس العوْمِ على الخيل ، ثم تقدّمهم هو إلى حافّة النهر ، وهو يقول للذين تردّدوا : « أتخافون مِن هذه النطفة ؟! » ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا** ﴾ [آل عمران : ١٤٥] ، ثم دفع فرسه واقتحم النهر ، واقتحم زملاؤه معه ، فلما

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٦ .

(٢) الإصابة ٤ / ٦ ، والاستيعاب ٢ / ٧٨٤ .

(٣) الفراض : جمع فرضة ، وهي موضع في الجهة المقابلة مِن النهر .

رآهم الفرس بعثوا فرسانهم ، فاقتحموا النهر أيضًا ، فلقُوا عاصمًا ورجاله في وسط النهر ، فقال عاصم : « الرماحَ الرماح ، اشرعُوها وتوخوا العيون » فالتقوا ، فاطَّعنوا . فولّى الفرْسُ . وَلَحِقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ، ومَن نجا منهم صار أعورَ من الطعن[1].

لله دَرُّكَ يا عاصم .. هنا يقف التاريخ ، وبأحْرُفٍ من نور يسجّل لعاصم معجزة عسكرية ، يقف العقل والقلب معًا أمامها وقفةَ إكْبار وإعجاب .

هِمَمٌ بلّغتْكُمُ رُتَبَاتٍ ... قَصُرَتْ عن بُلُوغِهَا الأوْهَامُ
ونفوسٌ إذا انبرتْ لقتالٍ ... نَفِدَتْ قبل أن ينفدَ الإقدامُ
وقلوبٌ مُوَطَّناتٌ على الرَّوْ ... عِ كأنَّ اقتحامَهَا استسلامُ
طال غِشيانُك الكريهةَ حتى ... قال فيك الذي أقول الحسامُ
فارسٌ يشتري بِرازَك للْـ ... ـفخرِ بقتلٍ مُعجَّلٍ لا يُلامُ

لله دَرُّكَ يا عاصم ، بطولة نادرة ، مِقدامٌ لا يَهمُّك أوقعْتَ على الموتِ أمْ وقعَ الموتُ عليك .

فتًى لا يضمُّ القلبُ همَّات قلبِهِ ... ولو ضمّها قلبٌ لمَا ضمَّه صَدْرُ

لله دَرَكَ يا عاصم من فارس قومه .. أعلم الناس بالخيلِ .. كأنك والقعقاع وقومك وُلدتم على صهواتها .. عَرَفُوا الخيلَ وعَرَفتْهم .

الثابتينِ فروسةً كجُلودها ... في ظهرها والطعنُ في لَبّاتِهَا
العارفين بِهَا كما عَرَفَتْهُمُ ... والرّاكبين جدودهم أُمّاتها
فكأنها نُتِجَتْ قيامًا تَحْتَهُمْ ... وكأنهمْ وُلِدُوا على صَهَواتها
إن الكرامَ بلا كرامٍ مِنْهُمُ ... مثلُ القلوبِ بلا سُوَيْدَاوَاتها

(١) الطبري ٣ / ١٢٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٩٨ .

تلكَ النفوسُ الغالباتُ على العُلى والمجدُ يغلبها على شَهوَاتها

لله دَرُّكَ يا عاصم ! لَكأنك تصيح بدنيء الهمة مِنْ أمثال من يشتكي منهم عصرُنا .

ولا تحسبَنَّ المجدَ زِقًّا وقَيْنة فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكرُ
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأنْ تُرَىٰ لك الهَبَوات السّودُ والعسْكَرُ المَجْرُ[1]
وَتَرْكُك في الدنيا دَويًّا كأنّما تَداولَ سَمْعَ المرءِ أنمُلُهُ العَشْرُ
وكمْ مِن جبالٍ جُبْتُ تشهدُ أنني الـ ـجِبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنني البحرُ

لله دَرُّكَ يا عاصمٍ ! كم كان عميقًا إيمانُك بالقضاء والقدَر وَسِرِّ اللهِ فيه !

في « البصرة » و« فارس » :

سار عاصم في جيشِ عتبة بن غزوان الذي بعث به عتبة ، لإنقاذ جيش العلاء بن الحضرمي ، وَشَهِدَ عاصم كافَّة معارك عتبة بن غزوان في جنوبيّ العراق .

عاصم الفاتح :

بعد فتْح « نهاوند » ، عقد عمر – بنفسه – سبعة أَلْوية لسبعةِ قادة ، عَهِدَ إليهم بالانسياح في أرض فارس كلها ، وكان من بين هذه الألوية السبعة لواءُ « سجستان » ، دفعه إلى عاصم ، وأمّره على رأس قوةٍ من أهل البصرة ، وأمدّه برجال من الكوفة ، منهم عبد الله بن عمير ؛ فعسكر عاصم قريبًا من البصرة ، ثم تحرّك إلى « سجستان » ، وهي أعظم من خراسان وأبعد فروجًا ، يقاتل أهلُها « القندهار » وأُممًا .....

(١) الهَبَوات : الغَبَرات . المَجْر : الكثير .

كثيرة[١] ، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة ، كلّ ذلك يدلّ على أهمية واجب عاصم ، وأن اختياره لهذا الواجب الخطير كان دليلًا على الثقة البالغة بقيادته . والتقى عاصم بحُماةِ « سجستان » على تُخُوم بلادهم ، فلم يثبتُوا للمسلمين ، بل انسحبوا إلى « زَرنج » عاصمةِ ولاية « سجستان » ، فحاصرهم المسلمون فيها ، وبثُّوا كتائبهم تتغلغل في المنطقة بأسْرها ، ولمّا أيقن المحاصَرون أن طول الحصار لا يُجدِيهم نفعًا ، طلبوا الصُّلح ، على أن تكون مزارع « سجستان » حمًى لا يطؤُها المسلمون[٢]، وبذلك فُتحت ولايةُ « سجستان » .

لله دَرُّكَ يا عاصم !!

ولا تزال منائر « سجستان » رافعةً رؤوسها شامخةً ، تذكر فاتحها عاصمًا التميمي الصحابي الجليل رضي الله عنه .

الأَحنفُ بن قَيْسٍ التميمي فاتحُ « قاشان » و« خراسان » ، أبو بحر ، سيِّدُ أهل المشرق ، المسمَّى بغيْر اسمِهِ :

سيِّدٌ من سادات التابعين ، لمّا وفد على عمر بن الخطاب احتبسه عنده حَوْلًا كاملًا ، ثم قال له : « هل تدري لِمَ حبستُك ؟ إنّ رسول الله ﷺ خوّفنا كلَّ منافقٍ عليم ، ولستَ منهم إن شاء الله » . وقال له : « يا أحنف ، قد بلوتُك وخبّرتك ، فلم أرَ إلّا خيرًا ، ورأيتُ علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مِثْلَ علانيتك » ..

كان الأحنف سيدَ قومه ؛ قال فيه معاوية : « هذا الذي إذا غَضِبَ

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٦ ، وابن الأثير ٣ / ٧ .

غَضِبَ لغضبه مائةُ ألفٍ من بني تميمٍ ، لا يدرون فيمَ غَضِبَ »[١].

قال فيه الشاعر :

إذَا الأبصارُ أبصَرَتِ ابنَ قيسٍ ظَلَلْنَ مهابةً منْهُ خُشُوعا

ضُرِبَ بحلمه المثلُ ، وكان رحمه الله من دهاةِ العرب ، وكان رحمه الله عاليَ الهمّة ؛ فقد سمع الأحنفُ رجلًا يقول : ما أبالي أمُدحتُ أمْ ذُمِمْتُ ، فقال له : « لقد استرحتَ مِن حيثُ تَعِبَ الكرامُ »[٢]..

لله دَرُّكَ من سيدٍ ينطق بالحكمة !

أشار الأحنفُ على عُمر ، ورغّب إليه الانسياح في بلاد فارسٍ ، فقال الأحنف : « يا أمير المؤمنين ، إنك نهيْتَنَا عن الانسياح في البلاد ، وإنّ مَلِكَ فارس بين أظهرهم ، ولا يزالون يقاتلون ما دام مَلِكُهم فيهم ، ولم يجتمع مَلِكانِ مُتَّفقان حتى يُخرج أحدُهما صاحبَه ، وقد رأيتُ أنَّا لم نُؤْخذ شيئًا بعد شيءٍ إلا بانبعاثهم وغدرهم ، وإنّ ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح ، فنسيح في بلادهم ونُزيل ملكهم ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس » . فقال عمر : « صدقتني والله » . وَأَذِن في الانسياح في بلاد فارس[٣].

الفـاتِح :

عَرَفَ عُمرُ الأحنفَ معرفةً شخصيةً ، فرأى منه عقلًا ودينًا ، كما برز مجاهدًا في الحروب ، فدفع إليه لواءَ « خراسان » حين أذِنَ في الانسياح في

---

(١) وفيات الأعيان ٢ / ١٨٦ - ١٨٧ ، وشذرات الذهب ١ / ٢٨ .
(٢) وفيات الأعيان (٢ / ١٨٨) .
(٣) الطبري ٣ / ١٨٤ - ١٨٥ ، وابن الأثير ٢ / ٢١٣ .

بلاد فارس سنة سبع عشرة من الهجرة ، وقبل أن يتوجّه إلى خراسان شهد مع أبي موسى فتْح « قم » ، ووجّهه أبو موسى إلى « قاشان » ، ففتحها عَنوةً ، ثم لَحِق بأبي موسى الأشعري . وسار إلى خراسان ، وكان « يزدجرد » قد قصد خراسان ، فأتى « مرو » فنزلها وبنى بيتًا للنار ، فدانَ له مَن فيها من الفرس ، فكاتَب الهرمزانَ ، وأثار أهل فارس والجبال ، فسار الأحنف حتى دخل خراسانَ من « الطَبسَين » ، فافتتح « هراة » عَنوة ، وسار نحو « مرو الشاهجان » ، فكتب « يزدجرد » – وهو في « مرْو الرّوذ » – إلى خاقان ملك الترك ، وإلى ملك « الصغد » ، وإلى ملك الصين ، يستمدهم . وخرج الأحنف من مرو الشاهجان ، بعد أن وصلته إمداداتُ أهل الكوفة ، فسار نحو « مرو الروذ » ، فلما سَمِعَ « يزدجرد » سار عنها إلى « بلخ » ، وَقَدِمَ أهل الكوفة إلى « بلخ » وأتبعهم الأحنف ، فالتقى أهل الكوفة بيزدجرد في « بلخ » فهزموه ، فما لَحِقَ الأحنف بأهل الكوفة إلا وقد فَتَحَ الله عليهم . وتتابع أهل « خراسان » – ممن شذّ أو تحصّن – على الصلح ، فيما بين « نيسابور » إلى « طخارستان » ، ممن كان في مملكة كسرى ، وكتب الأحنفُ إلى عمر بن الخطاب بفتح خراسان ، فقال عمر عن الأحنف : « هو سيد أهل المشرق ، المسمّى بغير اسمه » . وخشي عمر أن يتقدم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق ، فكتب إلى الأحنف : « أما بعد ، فلا تَجُوزَنَّ النهر ، واقتصرْ على ما دونه ، وقد عرفتم بأي شيءٍ دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به يدمْ لكم النصر ، وإياكم أن تعبروا فتنفضّوا » . وقد كان عمرُ رضي الله عنه حصيفَ الرأي ، بعيدَ النظر ، فقد سار خاقان الترك في جنده ، ويزدجرد معه ، فعبروا النهر إلى « بلخ » ، واضطر جند الكوفة أنْ يتراجعوا منها إلى « مرْو الرّوذ » ، ومِن « بلخ » تقدمتْ قوات « خاقان » وحلفائه باتجاه الأحنف في « مرو الروذ » ، وكان الأحنف قد خرج بقواته ليلًا من المدينة

وعسكر خارجها ، وفي الصباح جمع الناسَ وقال لهم : « إنكم قليل ، وإن عدوَّكم كثير ، فلا يَهُولنَّكم ؛ فكم من فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين . ارتحِلُوا من مكانكم هذا ، فاسندوا إلى هذا الجبل ، فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوِّكم ، وقاتِلوهم مِن وجهٍ واحد » .

وهذه الفكرة أخذها الأحنف من فَمِ جنوده ليلًا وهو يتسمَّع ، فعمل بها ، فللَّه دَرُّه من قائدٍ ! وكانت قوة الأحنف تُقدَّر بعشرين ألفًا : عشرة آلافٍ من الكوفة ، وعشرة آلافٍ من البصرة . وأقبل الترك ، فكانوا يُناوشون المسلمين نهارًا ويتنحَّوْن عنهم ليلًا ، فخرج الأحنف بنفسه - ليلةً - طليعةً لأصحابه حتى كان قريبًا من معسكر « خاقان » الترك ، فلمّا تنفّس الصبحُ ، خرج فارسٌ من الترك بطوْقه ، وضرب بطبله ، فَحَمَلَ عليه الأحنف ، فاختلفا ضربَتَيْن ، فطعنه الأحنف وهو يقول :

إنَّ على كلِّ رئيسٍ حقّا ... أنْ يَخضُبَ الصَّعْدَةَ أوْ تَنْدقّا[1]
إنّ لنا شيخًا بها مُلَقَّى ... سيفُ أبي حفصٍ الذي تبقَّى

وخرج فارسٌ تركيٌّ ثانٍ ، فأورده الأحنف حَتْفَهُ بطعنة نجلاءَ ، وهوَ يرتجزُ :

إنّ الرئيسَ يَرْتبي ويَطْلعُ ... ويمنَعُ الخلّاء إمَّا أربعُوا[2]

---

(١) الصعدة : الرمح ، والمعنى : واجب كل أمير أن يقاتل حتى يُدمي رمحه أو يتحطمَ من شدَّة القتال .

(٢) يرتبي : يصعد الرابية . الخلّاء : جمع خلّي ، وتميم تقول : خلّا فلان على اللبن واللحم ، إذا لم يأكل معه شيئًا ولا خلط به . رَبَعَ المكانَ : أقام ، يريد : أن واجب الرئيس أن يتحمل عِبْءَ الدفاع عن رجاله وحمايتهم .

وخرج فارس تركيٌّ ثالث ، فأورده الأحنف مَوْرد صاحبيْه وهو يرتجز :

جـرىٰ الشَّمُـوسُ ناجِـزًا بِنَاجِزْ مُتحفـلًا في جـرْيِهِ مُشارِزْ[1]

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، وأعدّ رجاله للقتال ، ولكنّ الترك آثروا العودة إلى ديارهم ؛ لأنّ مقامهم لا جَدْوَىٰ فيه ، ولأنّهم تكبّدُوا خسائر فادحةً بالأرواح ، وعَبَر « يزدجرد » معهم إلى بلاد الترك ، وثار عليه الفُرْس لما أراد أنْ يمضي بخزائن فارس إلى أرض الترك ، وفرّ « يزدجرد » إلى « فرغانة » عاصمة الترك ، وأقبل أهل فارس على الأحنف ، فصالحوه وعاهَدوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، فسار الأحنف بجنْد الكوفة من « مرو الروذ » إلى « بلخ » ، فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مَقرِّ قيادته في « مرو الروذ » ، وكتب الأحنفُ إلى عمر بالفتح ، فجمع عُمرُ الناسَ وخطبهم ، وقرأ عليهم كتاب الفتح ، وقال في خطبته : « أَلَا إنّ الله قد أهلك مُلك المجوسية ، وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرًا يضرُّ بمسلم ، أَلَا وإنّ الله قد أورثكم أرضَهم وديارهم ، وأموالهم وأبناءَهم لينظر كيف تعملون ، واللهُ بالغٌ أمرَه ، ومنجزٌ وَعْدَه ومُتْبِعٌ آخِرَ ذلك أوَّلَه ... » . وكان فتْح الأحنف لخراسان النذيرَ الصادق لانتهاءِ دولة الأكاسرة مِن بني « ساسان » ، ونشْر راياتِ الإسلام في تلك البلاد .

استِعادة فتح خراسان :

ولمّا نكث أهلُ فارس العهد بعد عمر ، استعادَ عبد الله بن عامر فتح بعض أرض فارس ، في أيام عثمان بن عفان ، وغزا خراسان وعلى مقدمته

---

(١) الشموس : الفرس التي تمنع ظهرها ، مشارز : الشدة والقوة . يعني أنه يزجُّ نفسَه في الحرب بقوة واندفاع كما تندفع الشموس ، لا تلوي على شيءٍ في جريها الشديد .

الأحنف ، فأتى « الطبسَين » ، وهما حِصْنا وبابا « خراسان » ، فصالحه أهلها ، فسار إلى « قهستان » فلقيه أهلها ، وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم ، فَقَدِمَ عليها عبدُ الله بن عامر وصالَحَ أهلهَا . ووجّه ابن عامر الأحنف إلى « طخارستان » ، فأتى إلى حصن « مرو الروذ » ، وله رستاقٌ[1] عظيم يُعرف برستاق الأحنف ، فحصر الأحنف أهله ، فصالحوه على ثلاثمائة ألفِ درهم . ومضىٰ الأحنف إلى « مرو الروذ » ، فصالَحَ أهلها بعد قتالٍ شديد ، وسيّر الأحنف سريةً ، فاستولت على رستاق « بغ » ، وصالَحت أهله . وجمع له أهل « طخارستان » ، فاجتمع أهل « الجوزجان » و« الطالقان » و« الفارياب » ، ومَن حولهم ، فبلغوا ثلاثين ألفًا ، وجاءهم أهل « الصغاينان » ، وهم من الجانب الشرقي من نهر « جيحون » ، فالتقوا ، وقاتل قتالًا شديدًا ، فانهزمَ الفرس وحلفاؤهم ، فطاردهم المسلمون ، وألحقوا بهم خسائرَ فادحةً بالأرواح[2] .

وسيّر الأقرعَ بن حابس إلى « الجوزجان » فهزَم عدوّه ، وفتحوا الجوزجان عَنوةً ، واستعاد الأحنف فتْح « الطالقان » صلحًا ، وفتح « الفارياب » ، ثم سار إلى « بلخ » فصالحه أهلُها . وهكذا استعاد الأحنف فتْح خراسان مرةً ثانيةً .

رضي الله عن الأحنف ؛ فقد كان إمامًا في الحِلم ، إمامًا في الدهاء ، إمامًا في رَجَاحة عقلِه ، إمامًا في وَرَعه ، إمامًا في عبقرية قيادته .. لقد كان رجلًا في أُمَّة ، وأُمَّة في رجل .. إنه سيدُ أهل المشرق ، المسمَّىٰ بغير اسمه ، كما يقول الفاروق رضي الله عنه .

---

(١) مجموعة القرىٰ .

(٢) الطبري ٣ / ٢٥٦ ، والبلاذري ٣٩٧ .

عبدُ الله بنُ سعْد بنِ أبي سَرْحٍ ، الصحابيُّ ، فاتحُ إفريقيَّة (تونس) :

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قائدًا لميمنة عَمرو ، منذ توجّه من « قيسارية » إلى أن فرغ من حروبه في مصر ، وكان عَمرو يبعثه إلى أطراف إفريقية غازيًا ، ويمدُّه بالجنود ، فيعود من غزواته ظافرًا غانمًا .

وولّاه عمر بن الخطاب صعيدَ مصر بعد فتْحها ، ولمَّا تولَّى عثمانُ رضي الله عنه الخلافة ، عزلَ عَمْرًا وولّى عبد الله مكانَه على مصر والصعيد .

فتحُ إفريقية :

يذكر التاريخ لعبدِ الله بن سعد فتْحه لإفريقية ؛ فلقد سار إليها في جيش تعداده عشرون ألفًا ، سنة ستٍ وعشرين هجرية ، والتقى مع جيش « جرجير » – البالغ عددُه مائة ألفٍ وعشرون ألفًا – بـ « عقوبة » ، ونشبتْ معركة حامية بين الطرفين .. ذكرنا خبرها في ترجمة عبد الله بن الزبير ، وقتل فيها ابنُ الزبير « جرجيرَ » وأخذ ابنته سَبيَّةً .

فللَّه درُّ جيش العبادلة : ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمرو ، وابن عمر ، وابن جعفر .

وحاصر ابن سعد « سُبَيْطلة » ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلافِ دينارٍ ، وسهْمُ الراجل ألف دينار ، وبعث عبد الله جيوشه في البلاد ، فبَلغت « قفصة » ، فسبُوا وغنِموا ، كما سيّر جيشًا إلى حصن « الأجم » ، وقد احتمى به أهل تلك البلاد ، فحصروه ، وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألفٍ وخمسمائةِ ألفِ دينار ، وهذا ما يساوي ثلاثمائة قنطارٍ من ذهب ، وأرسل عبدُ الله بن الزبير إلى عثمانَ بالبشارة بفتح إفريقية .

فرضي الله عن عبد الله بن سعد فاتح إفريقية سَهْلِهَا .....

وجَبِلِها[١] ؛ فلقد فتح الله على يديْه فتحًا عظيمًا[٢] ، وأذلَّت تلك الواقعةُ الرُّومَ بإفريقية ، وأصابهم رعبٌ شديد[٣]. وكان فتحه لها فتحًا مستدامًا .

فأين الرجال ؟! تولَّوْا ، وبقي « زَيْنُ العابدين » ، واسمه منه بريءٌ.

ألقابُ مملكةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كالهِرِّ يَحكي انْتفاخًا صَوْلَةَ الأسدِ

إي والله ... هذا اسمُهُ ؛ « زين العابدين » :

واستبدَّ البُغاثُ في ذِروة النَّسْرِ ... وقادَ الأُسودَ سِربُ النعامِ
في الجبالِ الشَّمَّاءِ مِن أرضِ تونس ... في البوادي مِن مَوْطني المترامي
عربداتٌ مِن الطِّلَى ورؤوس ... غارقاتٌ في سَكْرة الأحلامِ
وضلالٌ عنِ الهدىٰ وضياعٌ ... وانحرافٌ عن دَرْبِهِ المتسامي
نامَ فيكَ الرعاةُ حتَّىٰ استكانُوا ... فهنيئًا لِعُصْبَةِ النُّوَّامِ
وأقامُوا علىٰ الفجورِ وذُلُّوا ... يا لقومي مِن ضَيْعَةِ الحُكَّامِ
أُمَّةُ الذُّلِّ في ظلامِ الليالي ... ترشُفُ العارَ مِن كئوسِ مدامِ
قسّموها قطعانَ ذلٍّ مَهينٍ ... وَرَمَوْا جَمعَها بِشَرٍّ سِهَامِ
فقطيعٌ « ميترانَ » يحمي حِمَاهُ ... وقطيعٌ يعتزّ بالعمِّ سامِ
وقطيعٌ باتَ الرغيفُ هَواهُ ... شاردُ اللُّبِّ حائرُ الأفهامِ
ليسَ يدري مِنْ أمرهِ غيرَ دُنيا ... مُلِئَتْ بالغِنَاءِ والآثامِ
أمة الفسقِ والمهانةِ قُومي ... وعلى الذلِّ والمهانةِ نامي

* * *

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٧٩ .
(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢٧٠ .
(٣) البيان المُغرب ١/٨ .

غَـزْوُه للنُّـوبة :

غزا عبد الله النوبة سنةَ إحدى وثلاثين هجرية ، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالًا شديدًا ، فأصيبتْ عيونُ كثيرٍ من المسلمين ؛ قال الشاعر :

لمْ تَرَ عيني مثلَ يومِ « دُنْقُلَهْ »[1] والخيـلُ تعـدُو بالدُّروعِ مُثْقَلَهْ

وسـأل أهـل النوبة عبد الله بن سعد الهدنة ، فصالحهم على رقيقٍ يُؤدُّونه ، وبعد دخول جيش المسلمين « دنقلة » و« مقرة » ، بنى على باب مدينة مِلكهم مسجدًا ، وشرط عليهم حفْظه أبدًا ، ثم أسلمتْ النوبة والبجّة كلهم .

في قُبْرُص :

كان لعبد الله فضْل كبيرٌ في فتحها مع فاتحها معاوية بن أبي سفيان ، سنةَ ثمانٍ وعشرين .

في غزوةِ ذاتِ الصَّوَارِي :

في سنة أربع وثلاثين هجريةً : غزا عبد الله غزوةَ : « ذات الصواري » في البحر ، من ناحية الإسكندرية ، فلقيَه قسطنطين بن هِرَقل في جمْع لم تجمعِ الرومُ مثلَه مُذْ كان الإسلام ، فخرجوا في خمسمائةِ مركبٍ أو ستمائة ، والمسلمون في مائتي مركبٍ ، وكان في كلّ مركبٍ نصفُ شحنته ، إذْ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال في منطقة أُخرى ، وَقَدِمَ أهل الشام وعليهم معاويةُ بن أبي سفيان ، وعلى البحر عبد الله بن سعد ، وكانت الريح على المسلمين لمّا شاهدوا الروم ؛ فأرسى المسلمون والروم وَسَكَنَتِ الريحُ ، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم . فباتوا ليلتهم ، والمسلمون يقرءون

---

(١) مدينة كبيرة في بلاد النوبة .

القرآن ويصلّون ، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، فقرّبُوا سفنهم ، وقرّب المسلمون سفنهم ، فربطوا بعضها إلى بعض ، وصفّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن ، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصَّبر ، واقتتل الطرفانِ بالسيوف والخناجر ، فَقُتِلَ مِن الروم بَشَرٌ كثير ، وقُتِلَ من الروم ما لا يُحصىٰ ؛ وصبر المسلمون يومئذٍ صبْرًا لمْ يصبروا مثلَه في مَوْطن قطُّ ، فجُرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة ، فانهزموا ولم يَنْجُ منهم إلا الشَّريدُ . وفي هذه المعركة تعرضت حياة عبد الله لخطرٍ داهمٍ ؛ فقد قَرَنَ مركبَه بمركبٍ مِن مراكبِ الروم ، فكاد مركب العدو يجرُّ مركبَ عبد الله إليهم ، إلا أنّ أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبيْن بالسيف فقطعها ، وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر . لقد أظهر عبد الله في معركة « ذات الصواري »[1] بطولةً فائقة ، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم ، بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام . ومات القائد ، الذي قضىٰ سبعَ سنواتٍ من مدة حكمه مصر غازيًا ، وثلاث سنوات بين أهله ..

ودعا ابن أبي السرح : « اللهمّ اجعلْ خاتمتي على صلاة الصبح » . فلما طلع الفجر – من يوم وفاته – توضأ ، ثم صلّى الصبح ؛ فقرأ في الركعة الأولىٰ بفاتحة الكتاب و« العاديات » ، والثانية بأم القرآن وسورةٍ ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب ليُسلِّم عن يساره ، فقبض اللهُ رُوحه ، سنةَ ستٍ وثلاثين[2]. فرضي الله عنه ، وما أطيب خاتمته من خاتمةٍ !!

---

(١) سُمِّيت بذلك لكثرة صواري المراكب واجتماعها .

(٢) الروْض الأُنُف ٢ / ٢٧٤ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢٧٠ ، والإصابة ٤ / ١١ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ١١٤ .

القائد الصالح مجابُ الدعوة : عقبةُ بنُ نافعٍ ، فاتحُ « زويلة » و« غدامس » ، وبعض كُور السودان ، و« فزّان » ، وعامّة بلاد البربر و« باغاية » ، وبلاد « الزاب » و« طنجة » ، و« السوس الأدنى » و« السوس الأقصى » ومُختَطُّ « القَيْروان » :

١ - في مصر وليبيا :

شهد عقبةُ فتح مصر تحت لواء عمرو ، وبرزت مواهبُه القياديّة بصورةٍ مبكِّرة حينذاك ؛ بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش إلى « زَويلة » ، فافتتحها صُلْحًا وصار ما بين « برقة » و« زويلة » - سلمًا - للمسلمين[١] .

ولقد كان عقبة على رأس حاميةِ برقة ، يحمي الحدود الغربية لمصر ، وحافَظَ عقبة على تلك المنطقة ، حتى في أخطر الظروف والأحوال ، وحَمَاها من الروم ، وأصبحت قاعدةً متقدمة للمسلمين ، ينطلقون منها إلى فتْح إفريقية .

٢ - مِن ليبيا إلى القيْروان :

في سنة إحدى وأربعين هجرية استعمل عمرو بن العاص عقبة على إفريقية ، فانتهى إلى « لُوَاته »[٢] وكانوا قد صُولِحوا ، فنقضُوا عهدَهم زمنَ معاوية بن أبي سفيان ، فغزاهم عقبةُ ، فتنحَّوْا ناحيةَ « أطرابلس » ، فقاتلهم عقبةُ حتى هزمهم ، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبى عليهم وقال : « إنه ليس لمشركٍ عهدٌ عندنا ؛ إنَّ الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿ **كيفَ يكونُ للمُشركينَ عهدٌ** ﴾ [التوبة : ٧] ، ولكنْ أبايعكم على أنكم تُوفوني ذمّتي ، إنْ شئنا أقررناكم ، وإنْ شئنا بعناكم » .

---

(١) المغرب في حُلى المغرب ١ / ٤٥ ، والطبري ٣ / ٢٢٧ .

(٢) من أشهر قبائل البربر .

وعقد عمرو لعقبة على « هَوّارة »[١] ، فأطاعوهُم و« لواته » ثم كفروا ، فغزاهم عقبة من سنته ، فَقَتَل وسَبَىٰ .

وفي سنة اثنتين وأربعين الهجرية افتتح عقبة « غدامس » ، وقتل وسبى ، وفي سنة ثلاث وأربعين افتتح كور[٢] من السودان ، وافتتح « ودان » ثانية ، وهي من برقة ، وذلك سنة ستٍ وأربعين ، فقد خرج عقبة إلى « ودان » في أربعمائة فارس ، وأربعمائة جمل ، وثمانمائة قِرْبةِ ماءٍ ، على كلِّ جملٍ قربتان ، فلما وصلها ، أبَىٰ أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلدًا بلدًا ، وقبض على ملكهم فجدَع أُذُنَه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟! » فقال عقبة : « فعلتُ هذا بك أدبًا لك ، إذا مَسَسْتَ أذنَك ذكرته فلا تحارب العرب !! »

لله دَرُّكَ يا عقبة ! فهذه عِزّة القائد المسلم .

واستخرج منهم ما كان بُسْر بن أبي أرطاة فرضَه عليهم سنة ثلاثٍ وعشرين هجرية ، ثلاثمائة رأسٍ وستين رأسًا من العبيد ، ولمّا استتبَّ الأمرُ لعقبة في بلاد « ودّان » ، سأل عقبةُ أهلها : « هل من ورائكم مِن أحدٍ ؟ » . فقيل : « جرمة »[٣]. فسار إليها ثمانيَ ليالٍ من « ودّان » ، فلمّا دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام ، فأجابوا ، فنزل منها على ستة أميالٍ ، وخرج ملِكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلًا ، فحالت بين ملكهم وبين موْكبه ، فأمشَوْه راجلًا ، حتىٰ أتىٰ عقبة وقد لَغِبَ – وكان ناعمًا – فجعل يبصُق الدم ، فقال له : « لِمَ فعلتَ هذا بي ؛ وقد أتيتك طائعًا ؟! » . فقال عُقبة :

---

(١) من أشهر قبائل البربر .

(٢) الكورة تطلق على مجموعة من القرىٰ .

(٣) عاصمة بلاد « فزّان » أيام الفتح الإسلامي .

« أدبًا لك ، إذا ذكرته لمْ تحاربِ العرب » . وفرض عليهم ثلاثمائةٍ وستين عبدًا ، ومضىٰ عقبة في فتْحه حتى فتح بلاد « فزّان » ، حتىٰ أتىٰ على آخرها ، ونشر الإسلام في رُبوعها . وهذه أول مرةٍ دخل فيها العرب بلادَ « فزان » فاتِحِينَ . وسأل عقبة أهل فزّان : « هل مِن ورائكم أحد ؟ » . فقالوا : أهل « خاور » . وهو قصرٌ عظيمٌ على رأس المفازة ، في وُعورةٍ على ظهر جبل ، وهو قصبة « كاوار » ، فسار إليه خمسَ عشرةَ ليلةً ، فلما وصل إليه دعا أهلَه إلى الإسلام فأبَوْا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصْنهم ، فحاربهم ، وأقام على حصارهم شهرًا ، وتقدّم بجيشه جنوبًا لفتح بقية بلاد « كاوار » ، ففتحها حتىٰ أتىٰ على آخرها ، وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟ » . فقال عقبة : « أدبًا لك ، إذا أنتَ نظرتَ إلى أصبعك لم تحارب العرب » ... ثم فَرَض عليهم ثلاثمائةٍ وستين عبدًا[1].

وأراد عقبة أن يمضي قُدُمًا في مجاهل الصحراء ، فسأل أهل « كاوار » : « هل من ورائكم أحد ؟ » . فقال الدليل : « ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة » . فانصرف عقبة راجعًا ، فمرّ بقصر « خاور » فلم يعرِض له ، ولم ينزل بهم ، ثم سار ثلاثة أيام فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكانٍ اسمُه اليوم « ماء فَرس » ، ولم يكن به ماءٌ فأصابهم عطشٌ شديد ، أشفىٰ منه عقبةُ وأصحابُه على الموت ، فصلّى عقبةُ ركعتيْن ودعا الله ، وجعل فرسُ عقبة يبحث بيديه في الأرض ، حتى كشف عن صَفَاةٍ ، فانفجر الماء منها ، فجعل الفرسُ يمصُّ ذلك الماء ، وأبصره عُقبةُ ، فنادىٰ في الناس « أنِ احتفرُوا » . فحفروا سبعين حسْيًا[2] ، وشربوا

---

(١) فتوح مصر والمغرب صـ ٢٦٣ .

(٢) الحسيُ : الحفرة القريبة العُمق .

واستقوا فسُمّيَ ذلك المكان لذلك : « ماء فرس » . ورجع عقبة إلى « خاور » من غير طريقه التي أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلًا ، فوجدهم مطمئنِّين قد تمهَّدوا في أسرابهم ، فاستباح ما في المدينة مِن ذُريّاتهم وأموالهم ، وقتل مُقَاتِلَتهم .

فللَّهِ درُّه ! وما أبرع حركته هذه ، وما أحلىٰ مباغتته ! فقد أطبق على « خاور » في وقتٍ لم يتوقعه أهلها . وانصرف عُقبة بعد فتح « خاور » ، حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل ، حتى قدِم على عسكره بعد خمسةِ أشهر ، وقد جمّت خيولُهم وظهورُهم . وسار عقبة بجيشه إلى المغرب ، وجانَب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض « هوارة » فافتتح كل قصر بها ، ومضىٰ إلى « صفر » ، فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلًا إلى « غدامس » فاستعاد فتحها ، وتوجّه إلى « قفصة » فافتتحها ، ثم افتتح « قَسْطِيلية » ، ثم انصرف إلى القيروان .

لقد طهّر عقبة بهذا الفتح كلَّ المقاومات المعادية ، بين « برقة » و« القيروان » ، فأصبحت هذه المنطقة خالصةً للمسلمين ، حَرِيّةً أن تكون قاعدةً رصينة ، تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي .

بِنَاءُ عقبة للقيْروان[1]، وما كان فيه من الكَرامات :

« قال عقبة لرجاله : « إنَّ إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع مَن أجابَ منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخّذوا مدينة تكون عِزًّا للإسلام إلى آخر الدَّهر » . فركب إلى موضع « القيروان » ، اليوم ، وكان غيْضةً ، كثيرَ الأشجار ، مأوىٰ

(١) معنى القيروان : المدينة أو المعسكر أو المسلحة ، وموضع اجتماع الناس والجيش .

الوحوش والحيّات ، فقال له رجاله : « إنك أمَرتنا بالبناء في شعارٍ وغِياض لا تُرام ، ونحن نخاف من السباع والحيّات ، وغير ذلك من دوابِّ الأرض » . وكان في عَسْكَرِهِ خمسة عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وسائر ذلك تابعون ، فدعا الله عز وجل ، وجعل أصحابه يؤمِّنون على دعائِه ، ومضى إلى «السنجة» ووواديها ونادى : « أيَّتُهَا الحيّات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ﷺ ، فارحلوا عنا فإنا نازلون ، ومن وجدْناه بعد ذلك قتلناه » . ونظر الناس بعد ذلك إلى أمرٍ مُعجب ، من أن السباع تخرج من الشعار تحمِل أشبالها ، والذئب يحمل جَرْوَه ، والحيّاتُ تحمل أولادها ، ونادىٰ في الناس : « كُفُّوا عنهم حتىٰ يرتحلوا عنا » . فلمّا خرج ما فيها من الوحوش والهوامّ – وهم ينظرون إليها – نزل عقبة الوادي ، وأمرهم أن يقطعوا الشجر »[1].

وفي السِّيَر : « كان الموضعُ غيْضةً لا يُرام من السباع والأفاعي ، فدعا عليها ، فلم يبقَ فيها شيءٌ ، وهربوا ، حتى إن الوحوش لتحملُ أولادها » .

وعن موسىٰ بن محمد ، عن أبيه قال : نادىٰ : « إنا نازلون فاظعنوا » . فخرجْنَ من جِحَرَتِهن هوارب .

وروى نحوه يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب، قال : لمّا افتتح عُقبة إفريقية ، قال : « يا أهلَ الوادي ، إنا حالُّون إنْ شاء الله ، فاظعنوا » . ثلاثَ مراتٍ ، فما رأينا جُحْرًا ولا شجرًا إلا يخرج من تحته دابَّةٌ ، حتى هبطْنَ بطنَ الوادي ، ثم قال للناس : « انزلوا بسم الله » .

---

(١) رياض النفوس ١ / ٦ – ٧ ، والبيان المغرب ١ / ١٣ – ١٤ .

قال مفضل بن فضالة : « كان عقبة بن نافعٍ مجابَ الدعوة »[١].

وأمر عقبة ببناء القيروان سنة خمسين ، وأنجز بناءَها سنة خمسٍ وخمسين ، وكان عقبة في أثناء عِمَارة المدينة يغزو ويُرسل السرايا ، فتغيرُ وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام ، ورسخ الدين ، وصارت القيروان عاصمةَ الإسلام في المغرب ، والقاعدة الأمينة للمسلمين في شمال إفريقية .

مِن القيروان إلى المحيط :

وفي ولايته الثانية خرج عقبة بن نافع من القيروان ، بعد أن استخلف بها زهير بن قيس البلوي ، ودعا عقبة بأولاده قبل مغادرته القيروان ، وقال لهم : « إني قد بعتُ نفسي مِن الله عز وجلّ ، فلا أزال أجاهد مَن كفر بالله »[٢]. ثم وعظهم ووصّاهم ، ثم قال : « عليكم سلامُ الله ، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا » . ثم قال : « اللهمَّ تقبّل نفسي في رضاك ، واجعلِ الجهادَ رحمتي ، ودار كرامتي عندك »[٣].

سار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة « باغاية » ، لا يُدافعه أحدٌ ، والرومُ يهربون في طريقه يمينًا وشمالًا ، فحاصرها ، وقد اجتمعوا بها ، وقاتلهم قتالًا شديدًا ، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلًا ذريعًا ، وغنَم منهم مغانم كثيرة ، واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فَكَرِهَ المُقَام عليهم[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٢٤٠ ، وتاريخ ابن عساكر ، وطبقات علماء إفريقية ٨ ، وحسن المحاضرة ٢ / ٢٢٠ - ٢٢١ .
(٢) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .
(٣) رياض النفوس ١ / ٢٢ - ٢٣ .
(٤) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .

ورحل عقبة إلى « تلمسان » ، وهي من أعظم مدائنهم ، فانضمَّ إليها مَنْ حَوْلَهَا من الروم والبربر ، فخرجوا إليه في جيشٍ ضخم لَجِبٍ ، والتحم القتال ، ووقع الصبر ، حتى ظنَّ المسلمون أنه الفناء ، ولكنهم هاجموا الروم هُجُومًا عنيفًا ، حتى ألجئوهم إلى حصونهم ، فقاتلوهم إلى أبوابها ، وأصابوا منهم غنائم كثيرة .

وسار عقبة إلى بلاد « الزاب » ، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ، فقيل له : « أَرَبة » ، وهي دار مِلكهم ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية ، كلّها عامرة ، فامتنع بها مَن هناك من الروم والنصارىٰ ، وهرب بعضهم إلى الجبال ، فاقتتل المسلمون وَمَنْ بالمدينة من النصارىٰ ، ثم انهزم النصارى ، وقُتل كثير من فرسانهم[1] .

ورحل عقبة إلى « تاهرت » ، فاستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيبًا ، فحمِد الله وأثنىٰ عليه ، وقال : « أيُّها الناس ، إنَّ أشرافكم وخياركم - الذين رضي الله تعالىٰ عنهم ، وأنزل فيهم كتابه - بايعوا رسول الله ﷺ بيعةَ الرضْوان على مَن كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعُوا أنفسَهم من رب العالمين بجنَّته بيعةً رابحةً ، وأنتم اليوم في دار غُربة ، وإنما بايعتم ربَّ العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه ، فأبشروا ؛ فكلّما كثر العدوّ كان أخزىٰ لهم وأذلَّ ، إن شاء الله تعالى ، وربُّكم عزّ وجلّ لا يُسْلِمُكم ، فالقُوهم بقلوبٍ صادقة ؛ فإنّ الله عز وجل جعلكم بأسَهُ الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين » . فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدوّ ، ولكنهم انتصروا أخيرًا ، فانهزمَت الروم

---

(١) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .

والبربر ، وأخذهم السيف ، وكثُر فيهم القتْل ، وغَنِمَ المسلمون أموالهم وسلاحهم[١].

وسار عقبة حتىٰ نزل طنجة ، فلقيه بِطْرِيقٌ من الروم اسمُه « يليان » ، فنزل على حُكْمه ، وأراد عُقبة فتح الأندلس ، فقال له « يليانُ » : « أتترك كُفّار البربر وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بيْنك وبين المدد ؟! » . فقال عقبة : « وأين كفار البربر ؟ » . فقال : « في بلاد « السوس » ، وهم أهل نجدة وبأس » . فقال عقبة : « وما دينهم ؟ » . فقال : « ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حقٌّ ، وإنما هُم كالبهائم » . وكانوا على دين المجوسية يومئذٍ . فتوجّه عقبة ، فنزل على مدينة « وَلِيْلى » بإزاء جبل « زرهون » ، وهي يومئذٍ من أكبر مُدن المغرب ، وهي المسمَّاة اليوم : « قصر فرعون » ، فافتتحها عقبة وغَنِمَ وَسَبَىٰ .

وانتهىٰ عقبةُ إلى « السوس الأدنىٰ » ، وهو مغرب طنجة ، فقاتل جموعَ البربر الكثيرة ، وقتل منهم قتْلًا ذريعًا ، وبعث خيله في كل مكانٍ هربوا إليه ، ثم سار حتى وصل إلى « السوس الأقصىٰ » ، وقد اجتمعَ له البربر في عالم لا يُحصىٰ ، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم ، وسار عقبة حتىٰ وصل إلى « مالبان » – أقصىٰ بلاد المغرب – ورأى البحر المحيط ، فقال : « يا رب ، لولا هذا البحر لمضَيْتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك »[٢]. ثم قال : « اللهمَّ اشهدْ ؛ إني قد بلغتُ المجهود ، ولولا هذا البحرُ لمضيْتُ في البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يُعبد أحدٌ دونك »[٣].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤ / ٤٢ .
(٢) الكامل لابن الأثير (٣ / ٤٢ – ٤٣) .
(٣) رياض النفوس ١ / ٢٥ .

لله دَرُّ عُقبة وهو يتنقَّل مِن نصرٍ إلى نصرٍ ناشرًا الإسلام ، حتىٰ وصل إلى بلاد « أسَفى »[1] على المحيط الأطلسي ، وأدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ووقف ساعةً ، ثم قال لأصحابه : « ارفعُوا أيديَكم » . ففعلوا ، فقال : « اللهمَّ إني لم أخرجْ بطرًا ولا أشرًا ، وإنك لَتعلمُ أنّما نطلب السببَ الذي طلبه عبدُك ذو القرنَيْن ، وهو أنْ تُعْبَدَ ولا يُشرك بك شيءٌ ، اللهمَّ إنا معاندون لدينِ الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكنْ لنا ولا تكن علينا ، يا ذَا الجلال والإكرام » . ثم انصرف راجعًا[2] . وبعد ذلك سقط البطل شهيدًا في « تهوذة » ، على يد البربر .

لله دَرُّك يا عقبة !! كانت فتوحاتك مَدْعاة للفخر والاعتزاز ، وهي من الناحية العسكرية تستحقُّ كلّ التقدير والإكْبار ؛ لقد انطلق عقبة بكلّ حماسةٍ لتحقيق آماله وأمانيه في فتح إفريقية ، من القيروان حتى المحيط الأطلسي ، وأنجز ذلك في وقتٍ قد لا يصدِّقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحْتة ، ولكنّ هذا هو الذي حدَث فعلًا .

تُرىٰ ، هل يذكر التاريخ عقبة الفاتح الذي أذلَّ ملوك « ودان » و« جرمة » و« فزان » وأدّبهم ؟! أمْ سيذكر التاريخ مَأْفُون الصحراء صاحبَ « الكتاب الأخضر » ؟! وأيُّ ذلٍّ لم نعرفه علىٰ أيدي هؤلاء العبيد ؟!

مُطَأْطَأَ الرأسِ ظلَّ السيفُ يسبقني ... وطعنةُ الغدْرِ .. يا للموتِ .. تُلهينا
وأنَّةُ الأرضِ تَبكي في سلاسِلِهَا ... والقُدسُ في كَرْبِهِ يدعو المُعزِّينَا
وطارقُ البطْشِ يغدُو في منازِلنا ... وفزْعَةُ الموتِ لَمْ تَسْتَبْقِ لي دِينا
والمئذناتُ التي كَمْ هبّ ثائِرُهَا ... غَابَ الأذانُ بِهَا يا وَيحَ نَادِينَا

---

(١) بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصىٰ المغرب .
(٢) الاستقصا (١ / ٧٤) .

وأمَّـةُ البَعْـثِ بالأعتـابِ جاثِيَةٌ ... تُقَبِّلُ الأرضَ والأحلامُ تَطْوينا
وصوّحَ العُشبُ والمرعىٰ غَدَا لَهَبًا ... نمشي على جَمْرَةٍ ذلًّا وَتَهْوينا
« اللهُ أكبرُ » كانَ الكونُ يَسمعُهَا ... فيتَّقي بأسَ مَـن قـالوا ويُعْلينا
كَانَ الضُّحَىٰ ماجدًا والأرضُ مَرْحَمَة ... والمُنْتَدَىٰ والنّدىٰ يبكي رَيَاحِينَا
نتلُو على الدهرِ ما تُمْلِيهِ عِزَّتُنَا ... ويسمعُ الكونُ ما يتلُوه رَاوِينَا
« الرعْدُ » في بعْثِنا و« النصرُ » مَوْعِدُنَا ... و« الفجرُ » و« الشمسُ » و« الإسراءُ » حَادِينَا
حَتَّى كَبَتْ خيلُنَا في الشوْطِ وانطفأَتْ ... مَشَاعِلُ القومِ وانكبّتْ نواصِينا
والمسلمونَ انطوَوْا في الأرضِ وانكسرُوا ... واتَّخمُوا بِطنةً واستطعموا طينا
وبَاحَةُ البيتِ ناحتْ عَلَّ فَارِسَهَا ... لهُ عيونٌ ترىٰ مَنْ جاءَ يُفْنِينا
لكنَّهُ الليلُ أغفىٰ في كَلاكِلِهِ ... ووومضَةُ النَّجمِ أَغفتْ من غَواشِينا
وغصَّةُ الحزْنِ في الأحشاءِ واحدةٌ ... إنَّ المصائبَ يَجمَعْن المُصَابينا
نَمـدُّ كَفًّا بِهَـا للذلِّ مَسْغَبَـةٌ ... وَنُغْمِضُ العَيْنَ شُحًّا مِن تَدَنِّينا
وَنَعْلُكُ البُؤْسَ ممَّا شاءَ راجِمُنَا ... ونشربُ اليأسَ من إبْريقِ سَاقِينَا
وَنُرْسِلُ السَّهْمَ مِن أَفياءِ راقصةٍ ... ونُمطرُ العينَ دَمعًا مِن تشاكِينا
ونشربُ الموتَ صَابًا مِن عَلالَتِهِ ... بِئْسَ الشرابُ الذي قد ساءَ غِسْلِينَا
وَنَقْرَعُ الكأسَ تِلوَ الكأسِ في سَفَهٍ ... ونَفتحُ الأرضَ وَهْمًا صارَ يَطْوِينَا
ورَايةُ الحقِّ تَبكي أهلَ نُصْرَتِهَا ... فليسَ في أرضِنَا مَن يَرتجي حِينَا
وأصبحَ القِرْدُ والخنزيرُ يَحكُمُنا ... وارْتجَّ في حَلْقِهِ دَمْعُ المُوَاسِينا
غُبَارُ خَيْلِ الوَغَىٰ تشتاقهُ رئتي ... ومقْبَضُ السيفِ يَبكي مِن تجافينا
هـلْ ينـبري فـارسٌ للهِ بَيْعَتُـهُ ... يُحْيي قلوبًا عَتَتْ عَنْ أمْرِ بارِينا
وَيَبْعَثُ الطُّهْرَ نُورًا في أجنَّتِهَا ... ويقتفـي راشـدًا دَرْبَ النَّبِيِّينـا

* * *

موسىٰ بنُ نُصير فاتحُ المغرب الأقصىٰ والأندلس :

« أَمَا واللهِ لو انقادُوا إليَّ لَقُدْتُهم إلى رُومِيَّة » ... [موسىٰ بن نصير]

الأمير الكبير أبو عبد الرحمٰن فاتح الأندلس .

استعاد موسى فتح المغرب الأوسط ، وبدأ باستعادة جبل « زغوان » وما حوله ، واستعاد فتح زغوان وسبَىٰ منهم ، ووجّه ابنَه عبد الله بن موسىٰ إلى نواحي إفريقية ، فأتى بمائة ألفٍ من السَّبْي ، ثم وجَّه ابنه مروان فأتىٰ بمثلها ، وبعث ابن أخيه فسبىٰ أيضًا مائة ألفٍ ، فكان الخمس يومئذ ستين ألفًا ، واستطاع موسىٰ القضاء علىٰ جيُوب المقاومة في إفريقية ، واستطاع إخضاع قبائل البربر .

أرسل موسىٰ ألف فارس إلى « هوارة » و« زناتة » ، من قبائل البربر ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا ، وصالحهم المسلمون ، وصالحتْه أيضًا قبيلةُ « كتامة » .

وأغار موسىٰ بأربعة آلافٍ من أهل الديوان ، وألفين من المتطوِّعة ومن قبائل البربر ، على « صنهاجة » من البربر ، وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتْل الفناء في وادي « مَلْوِية » .

وغزا موسىٰ « سجومة » – في المغرب الأوسط – في عشرة آلافٍ ، واقتتلوا اقتتالًا شديدًا في جبل شديد ، لا يصل إليهم إلا من أبواب معلومة ، واستمر القتالُ ثلاثة أيامٍ ، وانهزم أهل سجومة ، ففتح المدينة وقتل ملوكها ، وأمر أولاد عُقبة بن نافع أن يأخذوا حقَّهم من قاتِل أبيهم ، فقتلوا مِن أهل « سجومة » ستمائة من كبارهم ، ثم قال لهم موسىٰ : « كُفُّوا » . وتتبع موسىٰ قبائل البربر فتبدَّدتِ القبائل أمامه ، فتتبَّعها عبْر « السوس الأدنىٰ » حتىٰ بلاد « سجلماسة » ووادي « درعة » . وسيّر ابنه مروان إلى « السوس

الأقصىٰ » وسيّر قائده زرعة بن أبي مدرك إلى بربر « مصمودة » ، في أطلس العليا ، ونجحت الحملتانِ ، وتأكّد انتشار الإسلام في بلاد المَصَامِدة ، الذين دخلوا فيه طَوْعًا . واستعاد موسىٰ فتح مدينة « مجانة » التي فتحها من قَبْلُ بُسْر بن أبي أرطاة .

فَتْح طنْجَة :

خرج موسىٰ من القيروان لفتح طنجة ، وجعل على مقدِّمته مولاه طارق ابن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة « طنجة » ، وهي قصبة الولاية وأمُّ مدائنهم ، فلما دنا من طنجة بثَّ السرايا ، وانتهتْ خيلهُ إلى السوس الأدنىٰ ، فوطئهم وسباهم ، وحاصر طنجة حتىٰ افتتحها ونزلها ، وهو أولُ مَن نزلها ، واختطَّ فيها للمسلمين ، فأسلم أهلها ، واستعمل موسىٰ على أهلها مولاه طارق بن زياد ، وترك عنده تسعة عشر ألفًا من البربر الذين حَسُنَ إسلامهم بالأسلحة والعُدَّة الكاملة ، وترك موسىٰ عندهم خَلْقًا من العرب ، ليُعلِّموا البربر القرآن . وبهذا تم فتْح ولاية طنجة التي كانت تتَّسع في القديم لمسيرة شهرٍ ، وليس المدينة فقط .

وبعد قتالٍ شديد ترك موسىٰ بن نصير « سبتة » ، ثم بعد ذلك عَرَض عليه أميرُها « يوليان » تسليم سبتة ، ودعاه إلى فتح أسبانيا .

لقد فتح موسىٰ بلاد المغرب ، وغنم منها أموالًا لا تعدُّ ولا تُوصف ، وله بها مقاماتٌ مشهورة هائلة[1] ، وأسلم على يديْه أهل المغرب ، وبثَّ فيهم الدينَ والقرآن .

* * *

(١) البداية والنهاية ٩ / ١٧١ .

جهادُه في البحر :

ولي غزو البحر لمعاوية ، وعقد موسىٰ لابنه عبد الله بن موسىٰ لواءَ غزوة الأشراف ، وسار عبد الله في المراكب إلى صقليّة ، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غُزِيت في بحر إفريقية « البحر الأبيض المتوسط » ، وافتتح عبد الله مدينة في صقلية ، وبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهبًا ، وكان عدد المسلمين ما بين الألف إلى التسعمائة .

وبعث موسىٰ عيَّاش بن أخيل على مراكب فَشَتَا في البحر ، وأصاب مدينة « سرقوسة » .

وبعث موسىٰ عبد الله بن مرّة إلى « سردانية » في بحر إفريقية فأصابها ، وافتتح مدائنها ، وبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأسٍ ، سوىٰ الذهب والفضة .

وجهَّز موسىٰ ولده عبد الله ، فافتتح جزيرتي « ميورقة » و« منورقة » .

فتْح الأندلس :

كان موسىٰ يتُوق إلى فتح الأندلس ، وبعث موسىٰ رجلًا من البربر – يسمَّىٰ « طريفًا » – في مائة فارسٍ وأربعمائة راجلٍ ، فجاز في أربعة مراكب ، حتىٰ نزل ساحل الأندلس في جزيرة « طريف » وأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء ، وأصاب سَبْيًا ومالًا كثيرًا ورجع سالمًا في سنة إحدىٰ وتسعين هجرية .

وبادَرَ طارق بن زياد مولىٰ موسىٰ بن نصير ، فافتتح الأندلس ، ولحقه موسىٰ لمّا استغاث به طارق ، ولقيه في « طلبيرة » ، على مقربةٍ من « طُليطلة » ؛ عبرَ موسىٰ إلىٰ الأندلس على رأس جيشٍ قوامُه : ثمانية عشر ألفًا ، من قريشٍ والعرب ووجوه الناس ، ودخل الجزيرة الخضراء ، فلما عزم على المسير ،

جمع حوله راياتِ العرب ووجوه الكتائب ، وعددُها يزيد على عشرين راية ، وتفاوض الجميع في الرأي ، وكيف تكون الخطة للفتح ، فأجمعوا على السير إلى « إشبيلية » ، وغزْو ما بقي من غرب الأندلس حتى « أكشونية ».

زحف موسىٰ إلى « شذونة » فافتتحها عَنوةً ، ثم سار إلى « قرمونة » ، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ، فدخلها المسلمون عَنوة ، وسار إلى « رعواق » – المعروفة بقلعة « جابو » – فافتتحها . وبهذا أُمِّنتْ خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى « قرطبة » .

لقد كان ترصينُ قواعد الفتح المتقدمة ، وتأمينُ خطوط مواصلات الفتح ، وحمايةُ الجانب الغربي لمنطقة فَتْح طارق – الأهدافَ الحيويةَ الأولى التي حقّقها موسىٰ بعد إنزال قواته الأندلس .

وفتح موسىٰ أشبيلية – وكانت من أعظم قواعد الأندلس – بعد أن حاصرها حصارًا شديدًا ، وبعد أن امتنعتْ عليه أشهرًا .

وفتح « ماردة » بعد أن حاصرها حصارًا شديدًا ، وبعد كثرة قتْلٍ في المسلمين ، على أن تكون أموال القتلىٰ ، وأموالُ الهاربين ، وأموال الكنائس ، وحُليُّها للمسلمين . ولما ثار عَجَمُ إشبيلية على الحامية التي بها ، وجّه موسىٰ ابنه عبد العزيز فاستردَّها ثانيةً ، بعد أن فتحها وقتلَ أهلها ، ونهضَ إلى « لبلة » ففتحها أيضًا .

التقىٰ موسىٰ بطارق بن زياد في موضعٍ يقال له : « تايد » أو « تاتير » ، وخرج طارق مُعظِّمًا له ، ونزل بين يديْه ، فعاتبه موسىٰ على مخالفته لرأيه في تسرُّعه باقتحام الأندلس من الوسط ، فاعتذر إليه طارق ، وقال : « إنما أنا مولاك ، وقائدٌ من قوّادك ، ما فتحته وأصبته إنما هو منسوب إليك » . والتقىٰ موسىٰ وطارق بـ « لذريق » ، عند بلدة « تمامس » ،

وهزم القُوط هزيمة نكْرَاءَ ، ولقي لذريقُ ملك الأندلس حتفَه على يد مروان ابن نصير .

وفُتحت طليطلة ثانيةً على يد موسىٰ ، بعد نقْضهم طاعة المسلمين ، ودخلها موسىٰ دخول المظفّر ، وسلّم طارق إلى موسىٰ الكنوزَ التي غنمَها من الكنائس .

وبعث موسىٰ برسولَيْن إلى الوليد بن عبدالملك يُنْهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختيارُه على التابعيّ الجليل عليّ بن رباح ومغيث الرومي ، فقال علي بن رباح للوليد : « يا أمير المؤمنين ، تركت موسىٰ ابن نصير في الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتَح على يديه ما لم يُفتح على يد أحد » . ثم دفع الكتاب إلى الوليد ، فقرأه الوليد ، فلمّا أتىٰ علىٰ آخره خرّ ساجدًا .

نعم .. لقد غَنِمَ المسلمون مِن كنوز « طليطلة » الزاخرة التي وجدوها في قصور « القُوط » – في كنيسة « طليطلة » الكبيرة بوجهٍ خاص – ما لا يخطر على بالٍ ، وأسْهبُوا في وصفها ، وسمّوها مائدة سليمان بن داود ، وهي التي حقَّق ابنُ حبان أنها كانت المذبحَ الكنسي ، وكان دُرَّةً من الدُّرر ، مُحلًّى بأثمنِ ما لدىٰ القوط من الذهب الخالص ، وطار الذكرُ مَطارَه عنها ، وكانت مرصَّعةً بفاخر الدُّر والياقوت والزُّمُرد ، لم تَرَ الأعين مثلَها .

فتْح شمالِ الأندلس :

عزم موسىٰ علىٰ متابعة الفتح شمالًا ، لإكمال فتح شبْه جزيرة الأندلس ، ففتح المدينة البيضاء « سرقسطة » ، بعد رعب أهلها منه ، وبعدها فتح « وشقة » و« لاردة » و« طركونة » ، وحين أوْغل موسىٰ وجاوز « سرقسطة » اشتدَّ

ذلك على الناس ، وقالوا : « أين تذهب بنا ؟! حَسْبُنَا ما في أيدينا » . وقال التابعي الجليل « حنش بن عبد الله الصنعاني » : « أيها الأمير ، أين تذهب ؟! تريد أن تخرج من الدنيا ؟! أَوَتلتمس أكثر مما آتاك الله عز وجل ، وأعْرَضَ ممّا فتح الله عليك ودوّخ لك ؟! إني سمعتُ من الناس ما لم تسمع ، وقد مَلئوا أيديَهم وأحبُّوا الدَّعَة » . فقال موسىٰ : « أما واللهِ لو انقادوا إليَّ لقدتُهم إلى روميّة – روما – ثم يفتحها الله علىٰ يديَّ ، إن شاء الله » . واستطاع موسىٰ بعد ذلك أن يُعيد إلى الجنود نشاطَهم وحماستهم للفتح ، وفتحَ « سرقسطة » ، و« قشتالة » ، وحصن « بارو » ، واخترق باب « تارنا » ، وسار متابعًا مجرىٰ نُهَيْر « النالون » ، ثم حَطَّ رِحاله عند قلعة « لُك بأشتوريش » غيرَ بعيدٍ عن « أبيط » ، وما زال بها حتىٰ فتحها ، ثم سار بنفسه حتىٰ بلغ « خيخون » ، وبعث سرية من فرسانه ، أدركت البحر عند صخرة « بلاي » على البحر الأخضر ، فطاعتِ الأعاجم ، ولاذوا بالسِّلْم وبذْل الجزية . وهكذا وصلتْ جيوش موسىٰ حتىٰ البحر المحيط ، واطمأنَّ إلى أنه فتَحَ شبهَ الجزيرة كلها .

وهناك بعض المؤرِّخين يذكرون أنّ موسىٰ بن نصير بعث سراياه إلى « قطالونة » ، ففَتَحَتْ « برشلونة » ، ومِن هناك اخترقتْ جبال البرتات « البرانس » ، وتوغّلتْ في بلاد « غالة » فاستولت على « أربونة »[1] ، وحصن « لودون » بوادي « نهر الرون » ، ووصلت إلى « قرقشونة » بجنوب فرنسا ، كما ذكر المَقَّري[2]. وفتح عبد العزيز بن موسىٰ ما بقي من مدائن الأندلس ، واستكمل فتْح غرب الأندلس « البرتغال » حاليًا .

---

(١) مدينة في الساحل الفرنسي الجنوبي .
(٢) في كتابه : « نَفْحُ الطِّيب » ١ / ٢٦٠ .

لله دَرُّ فاتحنا العظيم !! سيسجِّل التاريخ بكلِّ الإكبار فتوحاتِ موسىٰ ابن نصير ، التي وصفها هو نفسه وهَالَتْه ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك : « إنها ليست الفتوح ، ولكنَّها الحشر »[١].

رجع موسىٰ إلى المغرب وهو راكب على بغله « كوكب » وهو يجرُّ الدنيا بين يديْه ، أمر بالعَجَلِ تجرّ أوْقارَ الذهب والحرير ، وأخذ معه مائة من كُبَراء البربر ، ومائة وعشرين من الملوك وأولادهم ، فقدِم مصر في هيئة ما سمع به .. ووصل إلى دمشق ، وأهانه سليمان الخليفة ، وآثَرَ البطلُ رضا اللهِ ولم يَرَ الخروج ؛ قال رحمه الله : « واللهِ لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفًا ، ولكني آثرت الله ورسوله ، ولم نَرَ الخروج عن الطاعة والجماعة » .

لله دَرُّه مِن عظيم .. يُظهر حلْمَه وعظمته وقد أدخلوه على الخليفة سليمان ، ورأْس ابنه عبد العزيز بن موسىٰ بين يديْه ، فقال له : « أتعرف هذا الرأس يا موسىٰ ؟ » قال : « نعم ، هذا رأْس عبد العزيز بن موسىٰ بين يديك يا أمير المؤمنين ، فرحمةُ الله تعالى عليه ؛ فَلَعَمْرُ اللهِ ما علمتُه نهارَه إلَّا صوّامًا ، وليلَه إلَّا قوّامًا ، شديدَ الرأفة بمن وليه من المسلمين ... هنيئًا له بالشهادة ، قتلتم – واللهِ – صوّامًا قوّامًا »[٢].

وهذا موقفٌ بطوليٌّ آخر لموسىٰ لا يقلُّ روعةً عن مواقفه الأخرىٰ في الفتوح ، وهو موقف الصابر المحتسب ، الذي يصدَعُ بالحقّ غيرَ وَجِلٍ ولا هيَّابٍ . قال له الخليفة سليمانُ : « ما الذي كنتَ تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوِّك ؟ » . قال : « التوكُّل والدعاء إلى الله ، يا أمير

---

(١) نفْح الطيب ١ / ٢٦٦ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ٣٢ .

المؤمنين » . قال له سليمان : « هل كنتَ تمتنع في الحصون والخنادق ، أو كنتَ تخندق حولك ؟ » . قال : « كلّ هذا لم أفعلْه » . قال : « فما كنت تفعل ؟ » قال : « كنت أنزل السَّهْل ، واستشعر الخوف والصبر ، وأتحصَّن بالسيف والمِغفر ، وأستعين بالله وأرغب إليه في النصر » . قال له سليمان : « أيُّ الأمم أشدُّ قتالًا ؟ » . قال : « هم أكثر من أن أصف » . قال : « فأخبرني عن الروم » . قال : « أُسدٌ في حصونهم ، عِقبان على خيولهم ، نساءٌ في مراكبهم ، إنْ رأوا فرصةً انتهزوها ، وإنْ رأَوْا غَلَبَةً ، فأوعالٌ تذهب في الجبال ، لا يَرَوْنَ الهزيمة عارًا » .

وقال رحمه الله : « والله ما هُزِمَتْ لي رايةٌ قطُّ ، ولا بُدِّد لي جمع ، ولا نُكِبَ المسلمون معي ، منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن بلغت الثمانين ، ولقد بعثتُ إلى الوليد بتورٍ[1] زبرجد ، كان يجعل فيه اللبن حتى تُرَى فيه الشَّعرة البيضاء ... ». ثم أخذ يُعدّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد ، حتى تحيّر سليمانُ .

وقال مرةً : « يا أمير المؤمنين ، لقد كانت الألفُ شاةٍ تباع بمائة درهم ، وتباع الناقةُ بعشرة دراهم ، وتمرُّ الناسُ بالبقر ، فلا يلتفتون إليها ، ولقد رأيت العِلْجَ الشاطر وزوجتَه وأولادَه يُبَاعون بخمسين درهمًا »[2] .

لله دَرُّ موسى :

النصرُ يقدُمُهُ والحَزْمُ سائِقُهُ ... عفُّ الخلائِقِ ماضٍ غيرُ وسنانِ
الحقُّ نِسْبَتُهُ والعدلُ سِيرتُهُ ... جَزْلُ المواهبِ مُعْطٍ غيرُ منّانِ

دخل مرةً على الخليفة سليمان ، فلمّا رآه سليمان قال : « ذهبَ

---

(١) إناء .
(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٩ - ٥٠٠ .

سلطان الشيخ » . فقال له موسىٰ : « أما واللهِ لَئِنْ ذَهَبَ سلطانُ الشيخ ، لقد أثّر الله به في دينه أثرًا حسنًا ، ولقد كنتُ طويلَ الجهاد في الله ، حريصًا على إظهار دين الله حتىٰ أظهره الله ، وكنتُ ممَّن أتمّ الله به موعده لنبيّه ، ولئن أدبر معك ، لقد كان مع آبائك ناضرَ الغصن ميمونَ الطائر » .

نعم واللهِ ؛ لقد نشر الإسلام ، وكان طويل الجهاد ، فتكلّل جهادُهُ بثمرات يانعة من الفتح الضخم ، الذي يضعه في مصافٍّ أعظم الفاتحين وأكبر المجاهدين ، ولا غروَ أنْ قال له سليمان بعد ذلك – لما أراد غزو الروم – : « أَشِرْ عليّ يا موسىٰ ؛ فلم تزلْ مُبارَكَ الغزوة في سبيل الله ، بعيدَ الأثر ، طويلَ الجهاد » .

رحم الله موسىٰ بن نصير ، فكمْ كان وَرِعًا تقيًّا ، يحبُّه عمر بن عبد العزيز كلَّ الحُبِّ ، لتقواه وعطائه .

قال جعفر بن الأشتر : « كنتُ فيمن غزا الأندلس مع موسىٰ ، فحاصرْنا حِصنًا من حصونها عظيمًا ، بضعًا وعشرين ليلةً ، ثم لمْ نقدر عليه ، فلمّا طال ذلك عليه ، نادىٰ فينا : « أن أصبحوا على تعْبئةٍ ». وظننَّا أنه قد بلغَه مادّةٌ من العدو ، وقد دَنَتْ مِنَّا ، وأنه يريد التحوُّل عنهم ، فأصبحنا على تعبئةٍ ، فقام فحمِد الله ، ثم قال : « أيُّها الناس ، إني متقدِّم أمام الصفوف ، فإذا رأيتموني قد كبّرتُ وحملت ، فكبّروا واحمِلُوا » . فقال الناس : « سبحان الله ! أترىٰ فقد عقله ، أم عزبَ عنه رأيُه ؟ يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيلَ إليه ؟! » . فتقدم بين يدَي الصفوف حيث يراه الناس ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن رُكُوب ، منتظرون تكبيرَه ، فاستعددنا ، ثم إنّ موسىٰ كبّر وكبّر الناسُ ، وحمَل وحمل الناسُ »[1].

---

(١) الإمامة والسياسة ٢ / ٧٩ .

قال الذهبي في السير (٤ / ٤٩٧) : « عمل مع الروم مُصافًا مشهودًا ، ولمّا هَمَّ المسلمون بالهزيمة ، كشف موسىٰ سرادقه عن بناته وحُرَمِه ، وبرز ورفع يديْه بالدعاء والتضرُّع والبكاء ، فكُسرت بين يديه جفونُ السيوف ، وصدقوا اللقاء ، ونزل النصر ، وغَنِموا ما لا يُعبّر عنه » .

« ولما دخل موسىٰ إفريقية ، وجد غَالِبَ مدائنها خالية ، لاختلاف أيدي البربر ، وكان فأمر الناس بالصلاة والصوم والصلاح ، وبرز بهم إلىٰ الصحراء ، ومعه سائر الحيوانات ، ففرّق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والضجيج ، وبقي إلى الظُّهر ، ثم صلّى وخطب ، فما ذَكَرَ الوليدَ ، فقيل له : « ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ ». فقالوا : « هذا مقامٌ لا يُدعىٰ فيه إلا الله » . فسُقُوا وأُغِيثوا »[1].

لله دَرُّه من قائدٍ تقيٍّ وليٍّ ! بمثله تنتصر الجيوش .. لا كغيره من قواد الهزيمة :

وَشِسْعُ النَّعْلِ مِن موسىٰ الوليِّ يفوقُ الهَامَ منهمْ والجَبِينا

لله دَرُّ القائد موسىٰ بن نصير !! أيّ همةٍ همتُه ؟!

إني أراكَ من المكارمِ عَسْكَرًا في عسْكرٍ وَمِنَ المعالي مَعَادِنَا

نعم يا سيدي :

أَكَلَتْ مَفَاخِرُكَ المفَاخِرَ وانثَنَتْ عَنْ شأْوِهِنَّ مَطِيُّ وَصْفي ظُلَّعَا[2]

وَجَرَيْنَ جَرْيَ الشمسِ في أفلاكِهَا فقطعْنَ مغربَهَا وجُزْنَ المَطْلَعَا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٨ ، ابن الأثير ٤ / ٢٠٦ ، وفيات الأعيان ٤ / ٤٠٣ .

(٢) الشأو : الغاية ، وظُلّعًا : تمشي كأنَّ بها عَرجًا .

لَوْ نِيطَتِ الدنيا بأخرىٰ مِثْلِهَا لَعَمَمْنَهَا وخشيْنَ أنْ لا تَقْنَعَا

نعم يا سيدي :

لوِ استفرغْتَ جُهْدَكَ في قتالٍ أتيتَ بهِ على الدنيا جَميعَا
قَدِ استقصَيْتَ في سَلَبِ الأعادي فُردّ لهمْ من السلَبِ الهجُوعَا
إذا ما لمْ تُسِرْ جيشًا إليهمْ أسَرْتَ إلى قلوبهمُ الهُلُوعَا
سَمَوْتَ بهمَّةٍ تسمو فتسمُو فما تُلْفَىٰ بمرتبةٍ قَنُوعَا
وَهَبْكَ سمَحْتَ حتىٰ لا جوادٌ فكيفَ عَلَوتَ حتىٰ لا رفيعَا

لله دَرُّه ! كيف كان طموحه أنْ يقود رجاله إلى « روميّة » ليفتحها ؟! وكيف كان طموحه يذهب به إلى مدًى أبعد من ذلك ، فيقود رجالَه مخترقًا ما بين الأندلس والقسطنطينية ، فاتحًا ما بينهما من أوربا ؟ فقد « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دروبَه ودروبَ الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أُمَم الأعاجم النصرانية ، مجاهدًا فيهم ، مُستلحمًا لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة ، فنمىٰ الخبرُ إلىٰ الوليد بن عبد الملك ، فاشتدَّ قلقُه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنَّ ما هَمَّ به موسىٰ غرر بالمسلمين ، فبعث إليه بالانصراف ، ففتّ ذلك في عزْم موسىٰ ، وقفل عن الأندلس »[1].

ومات القائد موسىٰ وأغمض البطلُ عينيْه إلى الأبد ، ولكنّ التاريخ لم يُغمض عينيْه عن مآثره الخالدة ؛ ذلك لأنه « كان قد جمع من خِلالِ الخير ما أعانه الله سبحانه به ، على ما بنىٰ له من المجد المشيّد ، والذكر الشهير المخلَّد ، الذي لا يُبليه الليل والنهار ، ولا يُعَفّي جديدَه بِلَىٰ الأعصار »[2].

---

(١) نفح الطيب ١ / ٢١٨ .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٦٨ .

وفي واقعنا : رَحَل موسىٰ وبقي مَن يَدّعي إمْرةَ المؤمنين .. وأنه قُرشيٌّ ، مَن جمع حوْله أهلَ الغناءِ .. يُرسل بالطائرة الخاصة تحملُ مطربًا يُحيي له عيدَ موْلده !! ويساهم في إنشاء كازينو الليل ... يا أمير المؤمنين .. ما أنت بالحسَن ، يا قُرشيُّ .. ذهبتْ قريشُ التي نعرفها عطرًا وضياءً ومجدًا ، وخالدًا وعمرًا وعقبة .. وأتتْ قريشُ الأردن وقريشُ المغرب ...!! لسانُ حالِكم يقول :

قُريشيُّون لَكِنّا بغير اللهِ نعتصمُ ... ونسْتذي كلابَ الأرض في المحرابِ تنتظمُ
فبئرُ النِّفْطِ بدّلنا أعاريبًا مُشَرذَمَةً ... وقبلتُه لَهَا نسعىٰ .. وما بِسِوَاهُ نلْتزمُ
قريشيُّون لكِنّا بنا نَسَبٌ يُدَنِّسُنَا ... « مُسَيلمةٌ » جرىٰ فينا ومِن سبأٍ أتىٰ صنمُ
غَدَا الإسلامُ في يدِنَا بَراميلًا ندحْرِجها ... وظلَّ البيتُ يلعَنُنَا لأنَّا أمَّةٌ غَنَمُ
عبدْنا اللهَ لَكِنَّا ... نُحبُّ اللاتَ والعُزَّىٰ ... وأصغَيْنَا لِقَوْلِ اللهِ يعلُو سمْعَنَا الصَّمَمُ
حملْنَا الإثمَ والعُدوانَ فوقَ البِرِّ والتَّقْوَىٰ ... تواصيْنا بغيرِ الحقِّ ليسَ يضمُّنَا رَحِمُ
وخاصمْنَا كتابَ اللهِ ألقيْناه ظِهْريّا ... وأصبحْنا وأمسيْنا معَ الظُّلماتِ نرتَطِمُ
ونُذْبَحُ دونما ثمنٍ وَنَفْنَىٰ دونما أثرٍ ... ويلعَنُنَا ترابُ الأرضِ يَحْيَا بيننا العَدَم
تبعثْرنا علىٰ الأيام لا ندري لنا شرفًا ... تلاصقْنَا بِوَحْلِ الأرضِ لا يعلو لنا قَدَمُ
وشاهتْ كلُّ باسمةٍ تُلوِّثُ طُهْرَهَا يَدُنَا ... وكأسُ عذابِنَا المنكودُ فوقَ الرأسِ ينْحَطِمُ
خرْجنا من فِجاجِ الأرضِ في حَمَأٍ بِهِ نَتَنٌ ... ودينُ اللهِ في الأنحاءِ لا تسمُو به رِمَمُ
وعدْنا مِن غثاءِ السَّيْلِ يأبىٰ الكلُّ قَصْعَتَنَا ... فليسَ جِفَانُنَا المملوءُ بالأقذارِ يُلتهمُ

يا أمير المؤمنين بالاستسلام لليهود ، وبفتح مُدن المملكة لهم ... يا مَرء القيس في أيامنا :

لجميعِ عَبيد رءوسِ العُرْبِ يُشرّفنا هذا الإعلانْ
« سيقومُ سيادةُ مَرءِ القيسِ تُرافقه زُمْرةُ فرسانْ

سيُيَمِّمُ شطرَ البيتِ الأسودِ يقرعُ أبوابَ الرومانْ
سيُعَرِّج مَرْءُ القيس على صنمٍ يطلبُ منهُ استئذانْ
سيعودُ إلينا مَرْءُ القيسِ ليحملَ شِرعةَ جُوستنيانْ
سيعودُ إلينا مَرْءُ القيسِ يُعَبِّئُ جُعْبَتَهُ الإيمانْ
إيمانٌ بسلامٍ عدلٍ وشمولٍ يملأ كلَّ مكانْ
بسلامٍ يقطع ثدْيَ الثَّكلىٰ كي تنسىٰ ألَمَ التَّمْنانْ
بسلامٍ ينشرُ كأسَ الخمرِ ويفتحُ حانًا للسكران
بسلامٍ يعزفُ للتلمودِ ليخنقَ ترتيلَ القرآنْ »[1]

فاتح الأندلس : طارق بن زياد :

مَوْلىٰ موسىٰ بن نصير ، ولكنْ يعْجز السادةُ عن أن يأتُوا بمعشار فتْحه .

جهّز موسىٰ جيشًا من البربر والعرب ، يبلغ سبعة آلاف مقاتل ، بقيادة طارق بن زياد الليثي ، فعبَر البحر من « سبتة » بجيشه تِباعًا ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة ، التي تسمَّىٰ بجبل طارق .

« وفي « تاريخ ابن بشكوال » أنه لمّا ركب البحر رأى – طارق – وهو نائمٌ النبيَّ ﷺ ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلَّدوا السيوفَ وتنكَّبوا القِسِيّ ، فيقول له رسول الله ﷺ : « يا طارق ، تقدَّمْ لشأنك » . ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه ، فهبّ من نوْمه مستبْشِرًا ، وبشَّر أصحابه ، وثابتْ نفسُه بِبُشْراه ، ولم يشكَّ في الظفر »[2].

---

(١) قصيدة : « امرؤ القيس » مِن ديوان : « كيف السبيل » لخالد عبد القادر – طبع : مكتبة المنار .

(٢) نفح الطيب ١ / ٢٣١ .

قال طارق :

ركبْنَا سفينًا بالمجازِ مُقَيَّرا ... عسىٰ أنْ يكونَ اللهُ مِنَّا قدِ اشترىٰ
نفوسًا وأموالًا وأهلًا بجنَّةٍ ... إذا ما اشتهيْنا الشيءَ فيها تيسَّرا
وَلَسْنَا نبالي كيفَ سالتْ نفوسُنا ... إذا نحنُ أدركْنا الذي كانَ أجْدَرَا[1]

وتوالت انتصارات طارق ؛ ففتح مدينة « قرطاجنة الجزيرة » ، ثم زحف غربًا واستولىٰ على المنطقة المحيطة بها ، وبعد معاركَ مَحليَّةٍ أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء ، وكتب عاملُ « لذريق » – « تُدْميرُ » – إليه : « إنه قد نزل بأرضنا قومٌ ، لا ندري أمِنَ السماءِ هُم أم مِن الأرض » . فزحف « لذريق » لصدِّ المسلمين في نحو مائةِ ألفٍ ذوي عددٍ وقوةٍ ، وكتب طارق إلى موسىٰ بأنه قد زحف إليه « لذريق » بما لا طاقة له به ، فجهّز له وأمدَّه بخمسة آلاف ، فكملوا بمن تقدَّم اثني عشر ألفًا ، وقام طارق في أصحابه ، فحثَّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه ، قائلًا : « أيُّهَا الناس ، أين المفرُّ ؟! البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم واللهِ إلَّا الصدق والصبر » . والتقىٰ الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنةَ اثنتين وتسعين الهجرية على وادي « برباط » أو وادي « لكة » ، واستمرّت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمةً ساحقة ، وأقامت عظامهم بعد ذلك بدهرٍ طويل مُلْبِسةً لتلك الأرض ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين ، وأحدث انتصار طارق في وادي « لكة » دويًّا هائلًا في المشرق والمغرب ، وتسامَع الناسُ من أهل « برّ العدوة » بالفتح على طارق بالأندلس ، وسَعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه مِن كلّ وجه ، وخرقوا البحر على كلّ

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٥ .

ما قدروا عليه من مركب وقشر[١] ، فلحقوا بطارق .

وبدأ طارق يَجني ثمارَ جهاده وانتصاره في وادي لكة ، ففتح « شذونة » عَنوة ، ثم مضىٰ إلىٰ « المُدُور » ثم عطف على « قرمونة » ، ثم إشبيلية ، فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى « إستجة » وكانت تؤلّف المركز الأول للمقاومة ؛ إذ كانت فلول القوط قد تجمّعتْ هناك ، فظفر طارق بصاحب المدينة ، وأرغمه على الصلح ، وفَرَض عليهم الجزية ، وعبَرَ طارقٌ الوادي الكبير ، فدخل طليطلة سنة ثلاث وتسعين ، دون مقاومة تُذكر ، وتغلغل طارق تغلغلًا عميقًا في أنحاء الأندلس ، ولم تقفْ هزيمة القوط على موضعٍ ، بل كانوا يُسلّمون ، بلدًا بلدًا ومَعقلًا مَعْقلًا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب مِن طارقٍ ، لمّا رأوْه يُوغِل في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغبًا في المَغْنمِ ، عاملًا على القُفُول ، فَسُقِطَ في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل .

وعبر موسىٰ إلى مولاه طارق ، ولمّا التقيا قال موسىٰ لطارق : « يا طارق، إنه لن يُجازيَك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثَر من أن يمنحَك الأندلس ، فاستبحْه هنيئًا مريئًا » . فقال له طارق : « أيُّهَا الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط ، أخوض فيه بفرسي » . يعني : البحر الشمالي ، ولم يزل طارق يفتح وموسىٰ معه إلى أن بلغ « جلّيقية » ، وهي على ساحل البحر المحيط[٢]. اهـ .

يا شَذَا ذكْرِ طارقِ بن زيادٍ ضوّعتْ مِن عبيرِه العَرَصَاتُ
أنتَ فوقَ الأمواجِ تقدُم جيشًا أولًا عيب تستغير الفلاةُ

---

(١) يُراد به : الزَّوْرق الصغير .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٤٢ .

كُلّمـــا دقّ للفتـــوح بطَبْـــلٍ ... مجّـدَتْ وافـدَ الكمـيّ لُغاتُ
جـاءَ أسبانيا بِمَقْـدِمِ صِـدْقٍ ... نُشـرتْ في مسـيرهِ هَبَـواتُ
وإذا ما سمِعـتَ للسيفِ قـوْلًا ... فهـوَ حـقٌّ وهـلْ يخونُ الثِّقاتُ
والقنـــاةُ التي بكفِّ شُجـــاعٍ ... صُـوِّبتْ مِن زنادهـا الطَّلَقـاتُ
وإذَا الكفُّ بالقنـــاةِ جبـــانٌ ... فَمِنَ العَجْز أنْ تُصيبَ القَناةُ[1]

ونحن يا طارق ، يا قابض الجزية من القوط :
صار ميراثُنا بيد الغرباء
نستقي بعد خيل الأجانب من ماء آبارنا
صُوفَ حِمْلاننا
ليس يلتفُّ إلا على مغْزَلِ الجزية
النار لا تتوهّج بين مضاربنا
بالعيون الخفيضة نستقبل الضيف
أبكارنا ثيّبات .. وأولادنا للفِرَاش
فمَن سيروّضُ مُهْرَ الخِيالْ
ومن سيضمّدُ في آخرِ الصيد جُرْحَ الغزالْ
ومن للرجالْ ؟!
إذا قيلَ : ما نَسَبُ القوم ؟
فانسكبتْ في خدود الرمالْ
دموعُ السؤالْ
أبي ظَامِئٌ يا رجالْ

(١) مِن قصيدة : « سيرة الأبطال » للشيخ عائض القرني صـ ٢٠ – طبع : دار جرش للنشر والتوزيع .

obeikandl.com

أريقوا له الدمَ كي يرتوي
وصبّوا له جَرعةً في الفؤاد الذي يكتوي
عسىٰ دمه المتسرِّب بين عروقِ النباتات ... بين الرمالْ
يعود له قطرةً قطرةً
فيعود له الزمن المنطوي

يا مـدريد :

يا مـدريد ... قـد جاءك طارق وجئناك ، وعندك الخبر اليقين .. فحدّثي :

أرقتُ وليلي مُذ فُجعتُ طويلُ ... أَيُلامُ في حِفْظِ الهـوىٰ مَتْبـولُ
ما زلتُ أرقُبُ في شذاك أحبّتي ... فمتى سَيَشفىٰ يا نسيمُ عَليلُ
أشقـانَي المحرابُ يسـأَلُ عنهُمُ ... مُـذْ فارقُـوا والمنـبرُ المثكـول
والمصحفُ المطوِيُّ يسأَلُ عنهُمُ ... قـدْ شاقـهُ الترتـيلُ والتـأويلُ
مَنْ هؤلاءِ القادمونَ ؟ أَعقبةٌ ؟؟ ... المجـدُ في عزَمَـاتِهِ مَوْصـولُ
أَمْ طارقٌ تشكُو القواربُ مجدَهُ ... والفتحُ فـوقَ رِكابِهِ مَحمـولُ
مَـنْ هـؤلاءِ القادمـونَ جلودُهُمْ ... سُمْرٌ ولكنْ في القلوبِ شهُولُ
لمْ يستقلُّوا الصافنـاتِ وإنَّمـا ... رَكِبُـوا بغـالًا سَعْيُهُـنَّ ثقيلُ
وتجرَّدُوا مِن كلِّ أبيضَ صارمٍ ... للمجـدِ فـيهِ تلألؤٌ وصَلِـيلُ
جاءُوا يَسوقهُمُ الأعادي عَنوةً ... فهُمُـو لهُمْ بينَ الأنـامِ ذُيـولُ
جاءُوا إلى مدريدَ بئسَ مَجيئهُمْ ... لا السعـيُ محمـودٌ ولا مأْمُـولُ
جـاءُوا ويا بئـسَ المجيء مجيئهم ... حُمُرٌ تُساقُ إلى الردىٰ وعُجولُ
جاءُوا وخلْفَهمُ الكرامةُ تشتكي ... أسَفًا وجنْـبُ المسلمـين ذليلُ

يَـأَيُّـهَا الأقصىٰ الأبيُّ وقد عَلا فـوْقَ المـآذنِ غاصِـبٌ ودَخِيلُ
يَـأَيُّـهَا الأقصىٰ الأبيُّ وقد جَثَا فَـوْقَ المنـابرِ خـائنٌ وعميلُ

قُتَيْبَةُ بنُ مسلمٍ الباهِلِيّ ، فاتح خوارزم وبُخارىٰ وسمرقند :

قال الذهبي في السير (٤ / ٥٠١ ، ٤١٠) : « كان لقتيبة بن مسلم بالمشرق فتوحات لم يُسمع بمثلها » .

الأمير أبو حفص ، أحدُ الأبطال والشجعان ، ومِن ذوي الحزْم والدهاءِ ، والرأي والغناء ، وهو الذي فتح خوارزم ، وبخارىٰ ، وسمرقند ، وكانوا قد نقضوا وارتدُّوا ، ثم إنه فتح « فرغانة » وبلاد الترك ، في سنة خمسٍ وتسعين .

أرسل عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج بن يوسف : « انظر لي رجلًا صارمًا ، ماضيًا لأمرك » . فسمَّى قتيبةَ بن مسلم ، فكتب إليه : « وَلِّهِ » . فأسند إليه إمارة خراسان ، فتسلّمها سنة خمسٍ وثمانين هجرية .

ولمّا قدِمَ قتيبة خراسان ، جمع الناسَ وحضَّهم على الجهاد ، وقال : « أمّا بعد .. إنّ اللهَ أحلّكم هذا المحلّ لِيعزّ دينه ، ويَذبَّ بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المالَ استفاضةً ، والعدوَّ وَقَمًا[1] ، ووعد نبيَّه ﷺ النصرَ ، بحديث صادق ، وكتابٍ ناطق ، فقال : ﴿ **هُوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدَىٰ وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ علىٰ الدِّين كلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشْركونَ** ﴾ [الصف : ٩] ، ووعدَ المجاهدين في سبيلِهِ أحسنَ الثواب ، وأعظم الذُّخْر عنده ، فقال : ﴿ **ذٰلِكَ بأنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمصَةٌ في سبيلِ اللهِ ولا يطئونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفارَ ولا يَنَالُونَ مِنْ عدوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ اللهَ**

---

(١) ذُلًّا .

لا يُضِيعُ أجرَ المُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعونَ واديًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجزيَهم اللهُ أحسنَ ما كانُوا يعملونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ - ١٢١] ، ثم أخبرَ عمَّن قُتل في سبيله أنه حيٌّ مرزوقٌ ، فقال : ﴿ **ولا تَحسبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بَلْ أحياءٌ عندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، فتنجّزوا موعودَ ربِّكم ، ووطِّنوا أنفسَكم علىٰ أقصىٰ أثرٍ وأمضىٰ ألمٍ ، وإيايَ والهُوَيْنَىٰ »[١].

لقد اشتُهر في فتح المشرق كثيرٌ من القادة ، كانوا شُهُبًا أضاءت سماءَ المشرق ، وانفتحت أمام عزيمتِهم أبوابُ الدنيا ، وسقطت دولة بني ساسانَ تحت سنابك جندهم ، وعندما جاء قتيبة ، وجد طابورًا خامسًا ممَّن تمرَّسوا قتالَ المسلمين ، وعرفوا أساليبَ حربهم ، ومع هذا أذلّ أنوفَهم ، وهنا يظهر عُلوُّ همّةِ هذا القائد الذي لا يُبارَىٰ ، ولقد فتح رحمه الله أقاليمَ واسعةً ، تزيد على ما فتحه أسلافه كلهم ، ويزيد الأمرَ أهميةً طبيعةُ الأقاليم الصعبة ، ومناخها القاسي ، وطبيعةُ سكّانها المقاتلين الأشدَّاء ، كما عرَفهم تاريخ الحروب منذ زمنٍ بعيدٍ ، ويَكفي شرفًا لقُتيبة شهادةُ « الأصبهبذ » - ملك الترك - له ، عندما علم بِمَصْرعه ؛ فقد قال لرجالٍ كانوا عنده : « يا معشر العرب ، قتلتم قُتيبة ويزيد[٢] ، وهما سيدا العرب ! » . فقيل له : « فأيُّهما كان أعظم عندكم وأهيب ؟ » . قال : « لو كان قتيبة بالمغرب ، بأقصىٰ حجر به في الأرض ، مكبّلًا بالحديد ، ويزيدُ معنا في بلادنا والٍ علينا ، لَكَانَ قتيبةُ أهيبَ في صدورنا وأعظم مِن يزيد »[٣].

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٤٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ١٠٥ .

(٢) يزيد بن المهَلّب بن أبي صفرة ، وكان واليًا على خراسان قبل قتيبة .

(٣) « قتيبة بن مسلم الباهلي » لبسّام العسلي صـ ٧٣ - ٧٤ - دار النفائس .

الفتــوح :

لمّا قَدِمَ قتيبة خراسان سنة خمسٍ وثمانين هجرية ، عَرَضَ الجند في السلاح والكُرَاع ، فكان جميعُ ما أحصَوْا مِن الدروع في جند خُراسان ثلاثمائة وخمسين درعًا ، وبعد أن أتمّ تنظيمه غادر مرو ، واستخلف على حرْبها إياس بن عبد الله بن عمرو ، وعلى الخراج عثمان بن السعدي ، وعندما وصل الجيش إلى نهر «جيحون»- المعروف حاليًا باسم «أمودايا»- توقّف في بلخ[١] ؛ لأن بعضَها كان منتقضًا عليه ، وقد ناصَب المسلمين ، فحارَب أهلَها ، ثم إنّ أهل بلخ صالحوا مِن غدِ اليوم الذي حاربهم قتيبة ، فأمر قتيبة بردِّ السَّبْي ، ثم مضىٰ إلى « الطالقان »[٢] بعد أن استقبل دهاقين بلخ ، وبعض عظمائهم الذين ساروا معه ، فلما قطع نهر جيحون تلقّاه ملك « الصغانيان »[٣] بهدايا ومفتاحٍ مِن ذهب ، فدعاه إلى بلاده فأتاه ، وأتىٰ « كفتان » بهدايا وأموال ودعاه إلى بلاده ، فمضىٰ إلى الصغانيان ، وكان ملك « أخْرون » و« شومان » – وهما من طخارستان – قد أساء جوار ملك الصغانيان ، فغزا قتيبةُ أخرون وشومان ، فجاءه ملكُها « غيسلشنان » ، فصالحه على فديةٍ أدّاها إليه ، فقبِلها قتيبة ، ثم قفَل فركِب السفن ، فانحدر إلى بلدة « آمل » ، وخلّف الجند بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، وتقدّم قتيبة جندَه فسبقهم إلىٰ مرو ، وفتح صالحُ – وهو في طريقه – مدينة « باسارا » ، ثم تابع طريقه إلى بلخ ، فمرو ، وعندما بلَغ الحجاجَ ذلك ، كتب إلى قتيبة يلُومه ، ويُعجّز رأيَه في تخليف الجند ، وكتب إليه : « إذا غزوتَ فكنْ في مقدمِ الناس ،

---

(١) مدينة بخراسان .

(٢) بلد بخراسان بين « مرو الروذ » و« بلخ » .

(٣) ولاية عظيمة فيما وراء نهر « جيحون » متصلة الأعمال بـ« ترمذ » .

وإذا قفلت فكنْ في أُخْرياتهم وساقتهم » .

أمضىٰ قتيبة عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م في تنفيذ هذه العمليات ، التي كانت بمثابة استطلاعٍ مَيْداني للموقف أكثرَ منها عمليات قتالية ، وعندما رجع إلى مقرِّ عملياته ، ومركزِ إدارته لإقليم خراسان ، انصرف إلى إدارة ولايته ، استعدادًا للمرحلة القتالية التالية ، في سنته القادمة .

غَزْو « بيكند »[1] :

علم قتيبة بوجودِ أسرىٰ للمسلمين في قبضة « نيزك » ملك طرخان ، فكتب إليه طالبًا إطلاق سراح الأسرىٰ ، وتهدّده في كتابه ، فخاف نيزك ، فأطلق الأسرىٰ وبعث بهم إلى قتيبة . فوجّه إليه قتيبةُ مَن يدعوه إلى الصلح ، وإلى أن يُؤَمِّنه ، وكتب إليه كتابًا يحلِفُ فيه بالله لئن لم يقدم عليه لَيغزونَّه ، ثم لَيطلبنَّه حيث كان ، لا يقلع عنه حتى يَظفر به ، أو يموت قبل ذلك ، وتوجَّه سفير قتيبة إلى نيزك والكتاب بيده ، وكان يستنصحه ، فقال نيزك للسفير : « ما أظنُّ عند صاحبك خيرًا ، كتب إليّ كتابًا لا يُكْتبُ إلىٰ مثلي ! » . فقال له السفير : « يا أبا الهياج ، إنَّ هذا رجلٌ شديد في سلطانه ، سهل إذا سُوهل ، صعبٌ إذا عُوسر ، فلا يمنعك مِن غلظة كتابه إليك ، فما أحسنَ حالَك عنده وعند جميع مضر » . فقدِم نيزك مع السفير على قتيبة ، فصالحه أهل « باذغبس » في سنة ٨٧ هـ = ٧٠٦ م على ألا يدخل باذغبس . وبعد أنْ أمِن قتيبة شرَّ نيزك وصالحه ، أقام إلى وقتِ الغزو ، ثم سارَ من مرو وأتىٰ مرو الروذ ، ثم أتىٰ « زم » ، ثم مضىٰ إلى « آمل » ، فقطع نهر جيحون وسار إلى بيكند ، وعندما علم أهل بيكند باقتراب جيش قتيبة ، استنصروا

---

(١) بيكند : أدنىٰ مدائن بُخارىٰ إلى نهر جيحون ، يُقال لها : مدينة التجار ، علىٰ رأس المفازة من بُخارىٰ . « تاريخ الطبري » ٦ / ٤٣٠ .

الصغد ، واستمدّوا مَن حولهم ، فأتوْهُم في جمع كثير ، وأخذوا بالطريق – قطعوا عليهم محاور اتصالهم بالخليفة – فلم ينفَذْ لقتيبة رسول ، ولم يصل إليه رسول ، ولم يجر له خبرٌ شهرين ، وأبطأ خبرُه على الحجاج ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاءِ لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلىٰ الأمصار ، وهم يقتتلون كلَّ يوم .

كان لقتيبة جاسوس – عين – يقال له : « تنذر » ، من الفرس العجم ، فأعطاه أهل بخارىٰ الأعلىٰ مالًا على أن يصرف عنهم قتيبة ، فأتىٰ تنذر إلى قتيبة ، وطلب الاجتماع به على انفرادٍ ، فنهض الناسُ وانصرفوا ، واحتبسَ قتيبةُ ضرارَ بن حصين الضَّبِّي حتى يحضر المقابلة ، فقال تنذر : « هذا عامل يقدم عليك ، وقد عُزل الحجاج ، فلو انصرفتَ بالناسَ إلىٰ مرو ! » . فدعا قتيبة « سياه » مولاه ، فقال : « اضرب عنقَ تنذر » . فقتله ، ثم قال لضرار : « لم يبقَ أحدٌ يعلم هذا الخبر غيري وغيرك ، وإني أُعطي اللهَ عهدًا : إنْ ظهر هذا الحديثُ مِن أحدٍ حتىٰ تنقضي حربنا هذه لألحقنَّك به ، فاملُكْ لسانك ، فإنَّ انتشارَ هذا الحديث يفتُّ في أعضادِ الناس » . ثم أذِن قتيبة للناس بالدخول عليه ، وعندما دخلوا راعَهم قتلُ تنذر ، فوجموا وأطرقوا ، فقال قتيبة : « ما يروعكم مِن قتل عبدٍ أحانه الله ؟! » . قالوا : « إنا كُنَّا نظنُّه ناصِحًا للمسلمين » . قال : « بل كان غاشًّا ، فأحانه الله بذنبه ، فقد مضىٰ لسبيله ، فاغدُوا على قتالِ عدوِّكم ، والقوهم بغير ما كنتم تلقوْنهم به » . فغدا الناس متأهِّبين ، وأخذوا مصافَّهم ، ومشىٰ قتيبة ، فَحَضَّ أهل الرايات ؛ فكان بين الناس قتالٌ بالرماح ، ثم تزاحفوا والتقَوْا ، وأخذتِ السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبرَ ، فقاتلوهم حتى زالت الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون المدينة ، واتَّبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول ، فتفرَّقوا ، وركبهم المسلمون

قتلًا وأسرًا كيف شاءوا ، واعتصم مَن دخل المدينةَ بالمدينة ، وهم قليلٌ ، فوضع قتيبة الفَعَلة - المهندسين - للعمل في أصلها لِيهدمها ، فسألوه الصلح ، فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلًا من بني قتيبة ، ثم ارتحلَ عنهم يريد الرجوع ، فلمّا سار مرحلة أو اثنتين - وكان منهم على خمسة فراسخ (خمسة عشر ميلًا) - نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامِلَ وأصحابَه ، وجدَعُوا أنوفَهم وآذانهم ، وبلغ قتيبةَ الخبرُ ، فرجع إليهم وقد تحصنوا ، فقاتلهم شهرًا ، ثم وضع الفَعَلة في أصل المدينة ، فعلّقوها بالخشب ، وهو يريد - إذا فرغ من تعليقها - أن يحرِق الخشب فتنهدم ، فسقط الحائطُ وهم يعلّقونه ، فقتل أربعين مِن الفعلة ، فطلبوا الصلح فأبَى ، وقاتلهم حتى ظفر بهم عَنوة ، فقتل مَن كان فيها مِن المقاتِلة ، وكان فيمن أخذوا في المدينة رجلٌ أعور ، كان هو الذي استجاش (استثار) الترك على المسلمين ، فقال لقتيبة : « أنا أفدي نفسي » . وسألوه : « ما تبذل ؟ » . قال : « خمسة آلافِ حريرةٍ صينية ، قيمتُها ألفُ ألفٍ » . فقال قتيبة : « ما ترون ؟ » . قالوا : « نرَى أنّ فداءَه زيادةٌ في غنائم المسلمين ، وما عسَى أن يبلغ مِن كيْد هـذا ؟! » . قال : « لا والله لا تُرَوَّعُ - لا تُخاف - بك مسلمةٌ أبدًا » . وأمر به فَقُتِلَ .

لما فتح قتيبة « بيكند » ، أصاب المسلمون فيها مِن آنية الذهب والفضة ما لا يُحصَى ، وصار في أيدي المسلمين شيءٌ لم يصيبوا مثله بخراسان ، ورجع قتيبة إلى مرو ، وقوي المسلمون فاشتروْا السلاح والخيل ، وجُلبت إليهم الدوابُّ ، وتنافسوا في حُسْن الهيئة والعدّة ، وغالوا بالسلاح ، حتى بلغ الرمح سبعين دينارًا[1] . وكان في الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة ،

---

(١) ولّى قتيبة لقسمة الغنائم عبدَ الله بن وَأْلان العدوي - أحد بني مَلَكَان ، =

فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفْع ذلك السلاح إلى الجند ، فأذن له ، فأخرجوا ما كان في الخزائن مِن عُدّة الحرب وآلة السفر ، فقسمه في الناس ، فاستعدُّوا ، فلما كان أيام الربيع ، ندب الناسَ وقال : « إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد ، وأنتقلكم قبل أنْ تحتاجوا إلى الإدفاء – من البرد – فسار في عُدّة حسنة من الدوابّ والسلاح ، فأتى « آمل » ، ثم عبر مِن « زم » إلى « بخارىٰ » ، فأتىٰ « نومشكت » – وهي من بخارىٰ – وذلك بعد أن استخلف على مرو بشار بن مسلم .

كان التحرك المبكّر لقتيبة غير مُتوقَّع ، فبُوغت أهل نومُشكَت ، مما حملهم على استقبال قتيبة ، وعقد الصلح معه في عام ٨٨ هـ = ٧٠٧ م ، ثم سار قتيبة إلى « راميثنه » ، فصالَحَه أهلها أيضًا ، فانصرف عنهم ، وزحف إليه الترْك ، ومعهم « السغد » وأهل « فرغانة » ، فاعترضوا المسلمين

= وكان قتيبة يسميه : الأمين ابنَ الأمين – ومعه إياسَ بن بيْهس الباهلي ، فأَذَابا الآنية والأصنام ، فرفعاه إلى قتيبة ، ورفعا إليه خَبَثَ ما أذابا – من بقية الذهب غير النقي والأوشاب – فوهبه لهما ، فأُعطيا به أربعين ألفًا ، فأعلماه ، فَرَجَعَ فيه وأمرهما أن يذيباه ، فأذاباه ، فخرج منه خمسون ألف مثقال . وفي كثرة غنائم هذا اليوم قال الشاعر الكُمَيْت :

ويومَ بِيكَنْدَ لا تُحصَىٰ عجائبُهُ وما بُخارَاءُ ممّا أخطأَ العَدَدُ

ساعدت وفرة الغنائم قتيبة على شراء اثني عشر ألفًا من جياد الخيل ، واثني عشر ألفَ هجينٍ . ودفع ثمن كل راحِلة أربعة آلاف درهم ، وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء ، وعندما أخذ في الاستعداد لغزْو نومشكت ورامِيثنه ، قيّد الخيولَ وأضْمرها ، حتى تذوبَ شحومُها وتصبح أكثر خفّةً ، لتجاوز الأنهار ، وقفْزِ الحواجز ، والسيْر في المسالك الوعرة . ثم عهد بهذه الخيول إلى أشرف الفرسان الذين يدفعهم في الطلائع (المقدمات) .

في طريقهم ، فلحِقوا عبدَ الرحمٰن بن مسلم الباهلي ، وهو على الساقة « المؤخرة » ، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميلٌ واحد ، فلما قربوا منه أرسل رسولًا إلى قتيبة يخبره ، وغَشيهُ الترك ، فقاتلوه ، وأتىٰ الرسول قتيبة فرجع بالناس ، فانتهىٰ إلى عبد الرحمٰن وهو يقاتلهم ، وقد كاد الترك يُلحقون بهم الهزيمة ، فلمّا رأى الناسُ قتيبة ، ارتفعتْ رُوحهم المعنوية ، وصبروا ، واستمرّ القتال حتى الظهر ، وأبلى يومئذ نيزك – وهو مع قتيبة – بلاءً حسنًا ، فهزم اللهُ التركَ وفضَّ جمعَهم . ورجع قتيبة إلى قاعدته (مرو) ، وقطع النهر مِن الترمذ إلى بلخ ثم إلى مرو . وقال الباهليُّون : لقي التركُ المسلمين – عليهم « كوربفانون » التركي ، ابن أخت ملك الصين – في مائتي ألف ، فأظهر الله المسلمين عليهم .

بدأ قتيبة عملياته في السنة التالية : ٨٩ هـ = ٧٠٨ م ، مع إطْلالة الربيع ، وعبَر نهر جيحون عند « زم » ، وتجمّع بقوات الصُغْد[1] و« كش » و« نسف » ، عند بداية المفازة الصحراوية ، وبعد معركة ضاريةٍ ، انتصر المسلمون على الترك . ومضىٰ قتيبة بالمسلمين حتى نزل بخرقانة السفلى ، عن يمين وردان ، فلقُوه بجمع كبير ، فقاتلهم يومَيْن وليلتين ، حتى ظَفِرَ عليهم ، ثمّ إنَّ قتيبةَ غزا « وردان خذاه » ملك بخارىٰ ، فلم يتمكّن من حسْم الصراع معه ، ولم يظفر مِن البلد بشيءٍ ، فرجع إلى مرو ، وكتب إلى الحجَّاج بذلك ، فكتب إليه الحجَّاج : « أن صَوِّرْهَا لي » . فبعث إليه بصُورتها (مخططها) ، فكتب إليه الحجَّاج : « أن كِسَّ بـ« كش » ، وانسفْ « نسّف » ، وَرِدْ « وَرْدان » ، وإيَّاكَ والتحويط ، ودعني مِن بنيات الطريق ، وارجعْ إلى مراغتك ، فتبْ إلى الله مِمّا كان منك ، وأْتِهَا مِن مكانِ

---

(١) ولاية عظيمة ، عاصمتُها : سمرقند ، وهي وعِرة المسالك ، اشتُهر أهلُها بالبطولة والبسالة .

كذا وكذا »[1].

فتْح بُخارىٰ (٩٠ هـ = ٧٠٩ م) :

لم تكن أعمالُ السنوات السابقة في حياة قتيبة بن مسلم ، أكثر من غزوات استطلاعية ، ودراسة ميدانية للطبيعة البشرية والطبيعة الجغرافية ، وأساليب القتال الملائمة .

وجاءت رسالة الحجاج ، وفيها انتقاص مِن كفاءة قتيبة ، وتحذيره له من نِقاط ضعْفٍ ، لا يجوز لقائد كقتيبة الوقوع فيها ، فخرج قتيبة لغزاته في عام تسعين هجرية ، وهو أكثر تصميمًا على بلوغ هَدَفِه .

وكان « وردان » ملك بخارىٰ قد استعد لمجابهة احتمال هجوم قتيبة ، فأرسلَ في طلب الدَّعْم من الصغد والترك ومَن حولهم ، وسَبَقَ قتيبةُ وصولَ الدعم ، فحصر بخارىٰ ، وطوّق قواتِ وردان .

عندما وصلت قوات الدعم ، خرجت قوّة من المسلمين لقتالها ، فقالت قبيلة الأزد – وقد أرادتْ شَرَفَ مجابهة قوات الدَّعم وحدَها – : « اجعلونا على حِدَة – ناحية – وخلُّوا بيننا وبين قتالِهم » . فوافق قتيبة ،

---

(١) انسفْ : نسف : بمعنى : دَمّرْ بلدة نَسف . وإياك والتحويط : بمعنى : احذرْ من التردُّد أو اللُّجوءِ إلى الأهداف الثانوية ، وركزْ على المواقع الهامّة . وحوِّطْ : بمعنى : طَوِّقْ ، أو ابنِ حوْله حائطًا . وإياك وبنيات الطريق : أي : اسلكِ الطريق المستقيم الذي لا تعريج فيه ، وابتعدْ عن الطرق الفرعية . وارجعْ إلى مراغتك : أي : ارجعْ إلى بخارىٰ واجعلْها هدفًا لك . والمراغة في الأصل : مُتمرغ الدابة . وأراد الحجاج من قتيبة أنْ يفتح بخارىٰ ويجعلَها قاعدةً له ، ويتقلّب فيها كما تتقلّب الدابة في مراغتها . (الطبري ، وابن الأثير – أحداث سنة ٨٩ هـ) .

وتقدّمت قبيلة الأزدْ للقتال - وقتيبة جالسٌ ، عليه رداء أصفر فوق سلاحه - فصبروا جميعًا في معركة طاحنةٍ كان التفوُّق فيها لصالح قوات الدعم ، ولم تلبث هذه القوات أن حطَّموا صمود الأزد ، واندفعوا في تقدّمهم حتى دخلوا معسكر قتيبة ، وجاوزوه إلى منطقة الشئون الإدارية ، ومعسكر النساء ، فخرجتِ النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو ، حتى ضرب النساء وجوهَ الخيل ، وعندئذٍ تدخّل قتيبة ، فأمر المَجْنبتين بتطويق قوات الترك وإبادتها ، وأسرع هؤلاءِ بالانسحاب إلى منطقةٍ مرتفعة ، فقال قتيبة : « من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ » . فلم يقدُم عليهم أحد ، والأحياء من العرب كلهم وُقُوفٌ ، فمشىٰ قتيبة إلى بني تميم ، وحضَّهم على القتال ، بقوله : « يومٌ كأيامِكم » . وتقدّم وكيعٌ - من تميم - فحمل الراية ، واستثار قومه ، وسلّم الراية لقائد فرسان تميم : هريم بن أبي طلحة المجاشعي ، في حين تولّى وكيع قيادة قوّة المشاة ، ووصلتْ قبيلة تميم بفرسانها ومشاتها إلى نهرٍ واسع ، وتقدّم الفرسان بقيادة هريم ، حتى خاضُوا النهر وعبروه إلى الضفة المقابلة ، فيما كان وكيع يجمع الخشب ، حتى أقام جسرًا على النهر ، وقال لأصحابه : « مَنْ وطَّن نفسه على الموت فلْيعبر ، ومَنْ لا ، فليثبت مكانه هنا » . وعبَرَ الجسر ثمانمائة مقاتل ، وسار بالقوة بعد ذلك ، حتى اقترب من العدو ، فأعطى جنده المشاة فترةَ استراحة قصيرة ، ومضىٰ لتنظيم قواته ، فجعل الخيلَ على مجنبتيْه لحمايتهما ، ثم قال لهريم : « إني مُطاعِنٌ القوم ، فاشغلْهم عنّا بالخيل » . وقال للناس : « شدُّوا » . فحملوا ، فما انثنَوْا حتى خالطوهم ، وحمل هريم خيلَه عليهم ، فطاعنوهم بالرماح ، فما كفُّوا عنهم حتى حَدَرُوهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : « أمَا تَرَوْن العدوَّ منهزمين ؟ » . فأتْبعهم الناسُ ، ونادىٰ قتيبة : « مَن جاء برأسٍ فلهُ مائة » . وانطلق الجند يعبرون النهر ، وأسرعتْ قوات الخَصم

بإخلاء ميدان المعركة ، والانسحاب بسرعةٍ قبل أن تصلَهم قوات المسلمين .

كان من نتيجة الهزيمة المنكرة التي نزلت بجيشَي الصغد وبخارىٰ ، وإصابة خاقان الترك وابنه في المعركة ، أن تقدّم ملك السّند « طرخون » ، حتى وصل الضفة المقابلة مِن نهر جيْحون ، وعرض على قتيبة الصلح ، فوافقه قتيبة ، ووقّعا اتفاقية الصلح ، وعندما رجع « طرخون » إلى بلاده ، رفض أهل مملكته قبول الصلح ، وخلعُوه عن الملْك ونَصبُوا ابن أخيه مكانه ، وشعر « طرخون » بالألم لهذا الموقف المتمرّد ، فاتّكأ على سيْفه وانتحَر .

وأرسل الملك الجديد رسولًا يعلن رفضَه لاتفاقية الصلح المعقودة مع عمّه ، وفي الوقت ذاته ، كان قتيبة ينظّم أمور بخارىٰ ، حتىٰ إذا فرغ منها ، رجع إلى مرو ومعه نيزك ، وقد أذهله ما شهِده من فتوح ، وأصبح يخاف بَأْسَ قتيبة . فقال لأصحابه وخاصته : « ... مُتّهَمٌ أنا مع هذا ، ولست آمَنه ، وهو شديد السطوة فاجرٌ ، فلو استأذنتُه ورجعتُ ، كان الرأي » . قالوا : « استأذنْه » . فلما كان قتيبة بآمل ، استأذنه في الرجوع إلى تخارستان ، فأذِن له ، فلما فارق عسْكره متوجّهًا إلى بلخ ، قال لأصحابه : « أغذوا السير » . فساروا سيْرًا شديدًا ، حتى أتوْا النوبهار ، حيث قال لأصحابه : « إني لا أشكّ أن قتيبة قد ندِم حين فارقْنا عسكره على إذنه لي ، وسيقْدم الساعةَ رسوله على المغيرة بن عبد الله يأمره بحبْسي ، فأقيموا ربيئةً - نقطة مراقبة - للنظر ، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة ، وخرج من الباب ، فإنه لا يبلغ « البروقان » ، حتى نبلغ تخارستان ، فيبعث المغيرة رجلًا ، فلا يدركنا حتى ندخل شعب (خُلُم) » . ففعلوا . ولم تمضِ سوى فترة قصيرة ، حتى أقبل رسولٌ مِن قبل قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبْس نيزك ؛ فلمَّا مرّ الرسول إلى المغيرة وهو بالبروقان - ومدينة بلخ يومئذ

خراب – ركب نيزك وأصحابه فمضَوا ، وقدِم الرسولُ على المغيرة فركب بنفسه في طلبه ، فوجده قد دخل شِعب « خُلُم » ، فانصرف المغيرة ، وأظهر نيزك الخلْع ، وكتب إلى « إصبهبذ » بلخ ، وإلى « باذام » ملك « مرو الروذ » ، وإلى « سهرب » – أو سهرك – ملك الطالقان ، يدعوهم إلى خلْع قتيبة فأجابوه ، وواعدهم الربيع أنْ يجتمعوا ويغزوا قتيبة .

كان ملك تخارستان – واسمه : جبغويه – ضعيفًا ، فأخذه نيزك ، فقيّده بقيدٍ من ذهبٍ ، مخافة أن يشغب عليه – وجبغويه ملك تخارستان ، ونيزك مِن عبيده ، جعله قائدًا لقواته – فلمّا استوثق منه ، وضع عليه حراسة قوية ، وأخرج عاملَ قتيبة من تخارستان ، وبلَغَ قتيبةَ خلْعُه قبل الشتاء ، وقد تفرّق الجند ، فلم يبقَ مع قتيبة إلا أهل مرو ، فبعث عبد الرحمٰن أخاه إلى بَلْخ في اثني عشر ألفِ مقاتل ، وكلّفه بالتوجُّه إلى البروقان ، وقال له : « أقمْ بها ، ولا تُحدِث شيئًا ، فإذا حسرَ الشتاء ، فعَسْكِرْ وسِرْ نحو تخارستان ، واعلمْ أني قريبٌ منك » . فسار عبد الرحمٰن فنزل البروقان ؛ وأمهَلَ قتيبة ، حتى إذا كان آخر الشتاء ، كتب إلى « أبرشهر » ، و« بيورد » ، و« سرخس » ، وأهل « هراة » ، لِيقدموا قبل أوانهم الذي كانوا يَقْدمون عليه فيه للغزو والحرْب .

كان أول من استجابَ لنيزك : طرخان ملك الطالقان ، واتّفق معه على حرب قتيبة ، فلمّا هرَبَ نيزك من قتيبة ودخل شِعبَ خُلم الذي يصل إلى طخارستان ، علم أنه لا طاقة له بقتيبة ، فهرب ، وسار قتيبة إلى الطالقان ، فأوقع بأهلها ، وقتل منهم مقتلةً عظيمة ، وصلَب منهم على امتدادِ أربعة فراسخ – اثني عشر ميلًا – في نظامٍ واحدٍ .

مضىٰ فصل الشتاء ، وجاء العام الجديد (٩١ هـ = ٧١٠ م) ، وقدِم أهل « أبرشهر » ، و « بيورد » ، و« سرخس » ، و« هراة » ، بجيوشهم

على قتيبة ، فسار بالناس إلى « مرو الروذ » ، واستخلف على الحرب حمّاد بن مسلم ، وعلى الخَراج عبد الله بن الأهتم ، وبلغ « مرزبان » مرو الروذ إقبالُه إلى بلاده ، فهرب إلى بلاد الفرس ، وقدِمَ قتيبة مرو الروذ ، فأخذ ابنيْن له فقتلهما وصلبهما ، ثم سار إلى الطالقان ، فقام صاحبُها ولم يحاربه ، فكفَّ عنه ، وفيها لصوصٌ ، فقتلهم قتيبة وصلبهم واستعمل على الطالقان عمرو بن مسلم ، ومضى إلى الغارياب ، فخرج إليه ملكها مُذعِنًا مُقرًّا بالطاعة ، فرضي عنه ولم يقتل بها أحدًا ، واستعمل عليها رجلًا من « باهلة » ، وبلغ صاحب « الجوزجان » خبرهم ، فترك أرضه وخرج إلى الجبال هاربًا ، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين ، فقبل منهم ، فلم يقتل فيها أحدًا ، واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني ، ثم أتى « بلخ » ، فلقيه الأصبهبذ في أهل بلخ ، فدخلها فلم يُقِمْ بها إلَّا يومًا واحدًا ، ثم مضىٰ قتيبة وهو يتبع أخاه عبد الرحمٰن ، حتى أتى شعب خُلم ، وقد مضى نيزك فعسكر ببغلان ، بعد أن ترك مجموعةً من المقاتلين لحماية مضيق الوادي – فم الشِّعب – وللدفاع عن مداخله وحراستها ، كما وضع نيزك حاميةً من المقاتلين في قلعة حصينة من وراء مضيق الوادي ، فأقام قتيبة أيامًا يقاتلهم عند مدخل الوادي ، دون أنْ ينال منهم أو ينتصر عليهم ، ولم تكن المعلومات المتوافرة لقتيبة تشير إلى وجود محاور للاقتراب سوى طريق الوادي ، وسوى مفازة لا يستطيع المجازفة بدفع الجند لاختراقها ، فوقف في موقعه ، محاولًا إيجاد مخرج من هذا المأزق ، وفي تلك الفترة ، قدم عليه ملك « الروب » و« سمنجان » ، فاستأمنه على أن يدلَّه على مدخل القلعة التي وراء هذا الشعب ، فآمنه – أعطاه الأمان – وبعث معه رجالًا في الليل ، فانتهى بهم إلى القلعة التي مِن وراء مدخل الوادي ، فباغتوهم بالهجوم وأبادوا حامية القلعة ، وهربَ مَن بقي منهم ، ومن كان في الشِّعب –

مدخل الوادي – فدخل قتيبة والناس الوادي ، وأتى القلعة ، ثم مضى إلى سمنجان ، و« نيزك » ببغلان ، عند نَبْعٍ يُعرف باسم : « فنج جاه » ، ولم تكن المفازة بين سمنجان وقرية بَغلان شديدة الوعورة أو صعبة المسالك .

أقام قتيبةُ بسمنجان أيّامًا ، ثم سار إلى نيزك ، وقدَّم أخاه عبد الرحمٰن ، وبلغ نيزك ذلك ، فارتحل مِن منزله حتى قطع وادي « فرغانه » ، ووجّه ثِقَلَه وأمواله إلى ملك كابول ، ومضى حتى نزل الكرز ، وعبد الرحمٰن ابن مسلم يتبعه ، فنزل عبد الرحمٰن وأخذ بمضائق « الكرز » ونزل قتيبة « أسكيمشست » ، بينه وبين عبد الرحمٰن فرسخان ، فتحصّن نيزك في الكرز ، وليس إليه مسلك إلا مِن وجهٍ واحد ، وكان ذلك الوجه صعبًا لا يمكن للفرسان الوصول إليه ، فحاصره قتيبة مدة شهرين كاملين ، حتى نفد التموين عند نيزك ، وأصاب جندَه الجدري ، وخاف قتيبة الشتاء ، فدعا « سُليمًا الناصح » ، وقال له : « انطلق إلى نيزك ، واحْتَلْ لأن تأتيني به بغير أمان ، فإنْ أعياك وأبَى فآمنْهُ ، واعلم أنّي إنْ عاينتُك وليس هو معك صلبتُك ، فاعملْ لنفسك » . فقال سُليم الناصح : « فاكتب لي إلى عبد الرحمٰن ، لا يخالفني » . قال قتيبة : « نعم » . وكتب إلى عبد الرحمٰن بذلك ، وعندما وصل سُليم إلى عبد الرحمٰن ، طلب إليه إرسال مجموعة من الفرسان للتمرْكُز عند مدخل الوادي ، وقال له : « إنّ على هؤلاء الفرسان إعاقَتَنَا عن الوصول إلى مدخل الوادي ، إذا ما خرجنا أنا ونيزك » . وبعث عبد الرحمٰن قوة من الفرسان إلى حيث أمرهم سُليم ، ومضى سُليم وقد حمل معه من الأطعمة ما يكفي أيّامًا ، حتى أتى نيزكًا ، ونصحه بتسليم نفسه إلى قتيبة ومحاولة إزالة غضبه ، وأنّ قتيبة لن يبرح موضعه ، وقد صمّم على قضاء الشتاء في موقعه ، هلَك أو سلِم . وبعد مناقشة طويلة ، استطاع سُليم إقناع نيزك بالتسليم ، لا سيما بعد أن برهن له عن مدى حاجة جنده

للطعام ، عندما عرض ما يحمله عليهم ، وقبل نيزك في النهاية مرافقة سُليم . وتدخّلت قوة الفرسان ، فحالوا بين الأتراك والخروج ، ورافقوا نيزكًا ، حتى قدِموا به إلى عبد الرحمٰن بن مسلم ، فأرسل رسولًا إلى قتيبة يُعْلِمه ، فأرسل قتيبة بطلبهم ، فقدِم بهم عبد الرحمٰن عليه ، فحَبَس أصحاب نيزك ، ودفع نيزكًا إلى ابن بسّام الليثي ، وكتب إلى الحَجّاج يستأذنه في قتل نيزك ، وفي انتظار ذلك جعل ابنُ بسّام نيزكًا في قبّتِهِ - خيمته - وحفَر حول القبة خندقًا ، ووضع عليه حراسة قوية ، وجاء كتاب الحجَّاج بعد أربعين يومًا ، يأمر بقتل نيزك . عندما جاء أمر الحجاج ، استدعى قتيبة نيزكًا للمثول بين يديه ، وقال له : « هل لك عندي عقْد أو عند عبد الرحمٰن أو عند سليم ؟ » . قال : « لي عند سليم » . قال : « كذبت » . وقام ، وردّ نيزكًا إلى حبْسه ، ومكث قتيبة ثلاثة أيام لا يظهر للناس ، وقام المهلّب ابن إياس العدوي ، وتكلّم في أمر نيزك ، فقال بعضهم : « ما يحلّ له أنْ يقتله » . وقال بعضهم : « ما يحلُّ له تركه » . وخرج قتيبة في اليوم الرابع ، فجلس وأذن للناس ، فقال : « ما ترون في قتْل نيزك ؟ » . فاختلفوا ، فقال قائل : « اقتلْه » . وقال قائل : « أعطيتَه عهدًا فلا تقتلْه » . وقال قائل : « ما نأمنهُ على المسلمين » . ودخل ضرار بن حصين الضبّي ، فقال : « ما تقول يا ضرار ؟ » . قال : « إني سمعتُك تقول : أعطيتَ الله عهدًا إنْ أمكنَكَ منه أن تقتله ، فإنْ لم تفعل ، لا ينصرنّك اللهُ عليه أبدًا » . فأطرق قتيبة طويلًا ، ثم قال : « والله لو لم يبقَ من أجَلي إلا ثلاث كلمات ، لقلتُ : اقتلوه ، اقتلوه ، اقتلوه » . وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وقتل أصحابه ، فقال المغيرة بن حبناء كلمة طويلة في مديح عمل قتيبة ، مطلعها :

لَعَمْري لَنِعْمَتْ غَزْوةُ الجندِ غزوةً قَضَتْ نَحْبها مِن نيزكٍ وتعلّتِ

عمل قتيبة بعد ذلك على إعادة تنظيم الإدارة في تخارستان ، وأطلق

سراح ملكها جغبويه ، وأرسله إلى الوليد ، فلم يزل بالشام حتى مات الوليد ، ورجع قتيبة إلى مرو ، واستعمل أخاه عبد الرحمٰن على بلخ ، وأرسل إلى الحجاج بالخراج وبأخبار الفتح ، فكان ما يردّده الحجاج دائمًا : « بعثتُ قتيبةَ فتًى غِرًّا ، فما زدته ذِراعًا إلا زادني باعًا » .

ما إن استقرّ قتيبة في مرو ، حتى وصله طلب أمان من ملك الجوزجان ، وكان قد هرب عن بلاده تأييدًا لنيزك ، ثم تراجع عن موقفه عندما عَلِمَ بمصرعه ، فآمنه قتيبة على أن يأتيه فيصالحه ، فطلب رهنًا يكونون في يديه ويعطي رهائنَ مقابل ذلك ، فأعطى قتيبةُ حبيبَ بن عبد الله بن عمرو بن حصين الباهلي ، وأعطى ملكُ الجوزجان رهائن من أهل بيته ، فخلَّف ملك الجوزجان حبيبًا بالجوزجان في بعض حصونه ، وقدم على قتيبة فصالحه ، ثم رجع فمات بالطالقان مسمومًا ، وقتل أهل الطالقان حبيبًا ، فما كان من قتيبة إلا أن قتل الرُّهُن الذين كانوا عنده ، وفي ذلك قال نهار بن توسعة :

أراكَ اللهُ في الأتـراكِ حكمًا ... كحُكْمٍ في قُرَيْظـةَ والنّضيرِ
قضـاءً من قتيبـةَ غَيْرُ جـوْرٍ ... بِهِ يُشْفَىٰ الغليلُ مِنَ الصـدورِ
فـإنْ يَـرَ نـيزكٌ خِـزْيًا وَذُلًّا ... فكمْ في الحربِ حُمقٌ مِنْ أميرِ

غزْو شُومان و « كَسّ » و « نَسَف » سنة إحدىٰ وتسعين هجرية :

أفاد ملك شومان « قيسلشتان » مِنَ الاضطراب الذي أثاره غدْرُ نيزك ، فطرد عامل قتيبة ، ومنع الفدية التي كان قد صالح عليها قتيبة ، فبعث إليه قتيبة رسولًا – وهو : « عيّاش الغَنَوي » – ومعه رجلٌ من نُسّاك أهل خُراسان ، يدعوانِ ملك شومان إلى أنْ يؤدِّي الفِدية على ما صالح عليه قتيبة ، فقدِما البلد ، فخرجوا إليهما فرمَوْهما ، فانصرف الرجل ، وأقام عيّاش الغَنَوي . فقال : « أمَا هاهنا مسلمٌ ؟! » . فخرج إليه رجلٌ من المدينة فقال : « أنا

مسلم ، فما تريد ؟ » . قال : « تعينني على جهادهم » . قال : « نعم » . فقال له عيّاش : « كن خَلْفي لتمنعَ لي ظهري » . فقام خلفه ، وكان اسم الرجل : المهلّب ، فقاتلهم عيّاش ، فحمل عليهم ، فتفرّقوا عنه ، وحمل المهلبُ على عياش من خلفه فقتله ، فوجدوا به ستين جراحة ، فغمّهم قتلُه ، وقالوا : « قتلنا رجلًا شجاعًا » . بلغ قتيبةَ ما فعله أهل شومان بسفيرَيْه ، فسار إليهم بنفسه ، ولمّا تكدْ قواته تأخذ قِسْطها من الراحة بعد قتال نيزك ، وأخذ طريقَ بلخ ، بعد أن دفع أخاه عبد الرحمٰن لقيادة مقدمته ، وكان ملك شومان صديقًا لصالح – أخو قتيبة – فأرسل إليه صالح رجلًا يأمره بالطاعة ، ويضمن له رضا قتيبة إنْ رجع إلى الصلح ، فأبى وقال : « ما تُخوّفني به من قتيبة ، وأنا أمنع الملوك حصنًا ؟! أرْمي أعلاه ، وأنا أشدُّ الناس قوْسًا ، وأشدُّ الناس رميًا ، فلا تبلغ نُشّابتُه نصفَ حصني ، فما أخاف من قتيبة » . فمضى قتيبة من بلخ ، فعبر النهر ، ثم أتى شومان وقد تحصّن ملكها ، فوضع عليه المجانيق ، ووضع منجنيقًا كان يسمّيها « الفحجاء » ، فرمى بأول حجر ، فأصاب الحائط ، ورمى بآخر فوقع في المدينة ، ثم تتابعتِ الحجارة ، حتى دمّر الحصن ، وخاف ملك شومان من الوقوع في قبضة قتيبة ، ورأى ما نزل به ، فجمع ما كان عنده من مال وجوهر ، فرمىٰ به في عيْنٍ في وسط القلعة لا يُدرَك قَعْرها ، ثم جمع قواته ، وفتح أبواب القلعة ، وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قتل ، ودخل قتيبة القلعة بعد أن فتحها عَنوة ، فقتَل المقاتِلة ، وسَبىٰ الذرية ، ثم رجع إلى « كِس » و« نسف » ، ثم مضى إلى بُخارىٰ ، ثم سار إلى طرخون بالصغد ، ليقبض منه ما كان صالَحه عليه ، فلما أشرف على وادي الصغد ، توقّف هناك ، وقبض من طرخون صلْحه ، وعاد مُتَّبِعًا محور : بُخَارىٰ ، آمل ، مرو .

كانت عمليات السنة التالية سهلة هيّنة ؛ فقد غزا قتيبة سجستان ، يريد « رُبتيل الأعظم والزابل » ، فلما نزل سجستان ، استقبلتْهُ رُسل رُبتيل بالصلح ، فقبل ذلك وانصرف ، واستعمل عليهم ربّة بن عبد الله بن عمير الليثي ، وعاد إلى مرو .

صلح قتيبة مع ملك خُوارزم شاه ، وفتْح « خام جرد » سنة ثلاث وتسعين هجرية :

كان ملك خوارزم – الآرال حاليًّا – ضعيفًا ، فغلبه أخوه « خرذاذ » على أمره – وخرذاذ أصغر منه – فكان إذا بلغه أنّ عند أحد مِن مواطني مملكته جاريةً أو دابةً أو متاعًا فاخرًا ، أرسل فأخَذَه ، أو بلغَه أنّ لأحدهم منهم بنتًا أو أختًا أو امرأة جميلةً ، أرسل إليه فغصَبَه ، وأخذ ما شاء ، وحبس ما شاء ، لا يمتنع عليه أحد ، ولا يستطيع الملكُ منعَه أو تأديبه ، وكثيرًا ما رفع الناس ظلاماتهم للملك ، فكان يقول : « لا أقوى عليه » . وزاد الأمر على الملك حتى ملأه غيظًا ، فلما طال الأمر عليه ، كتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه حتى يسلّمها له ، وبعث إليه بمفاتيح مدائن خُوارزم ، وهي ثلاثة مفاتيح من ذهب ، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه ، وكلَّ مَن يضادُّه أو يقاومه ، ليحكم فيه بما يرى ، وبعث في ذلك رُسلًا ، ولم يُطلع أحدًا من معاونيه ومستشاريه – مرازبته ودهاقينه – على ما كتب به إلى قتيبة ، فقدمتْ رسله على قتيبة في آخر الشتاء ووقْت الغزو ، وقد تهيّأ للحرب واستعدّ لها ، فأظهر قتيبة أنه يريد التوجُّه إلى الصغد ، ورجع سفراءُ خوارزم شاه إليه بما يحبُّ مِن قِبَل قتيبة ، وسار بعد أن استخلف على مرو ثابتًا الأعور مولى مسلم ، وجمع ملك خوارزم ملوكَه ، وأحْباره – كهنته – ومستشاريه ، وخدعهم بقوله « أن المعلومات المتوافرة له تؤكّد أنّ قتيبة يريد الصغد ، ولا يريد الهجوم على خوارزم شاه » ، فانصرف أهل خوارزم عن الاستعداد

للحرب ، ولم يشعروا باقتراب الخطر منهم ، إلَّا عندما نزلتْ قوات المسلمين في « هزارسب » ، دون النهر ، واجتمع أصحابُ الملك لمناقشة الموقف ، وطالبوا بالتعرُّض لقتال قتيبة ، ولكنّ الملك قاوم هذا الاتجاه ، عندما قال لهم : « إني لا أرى ذلك ؛ فقد عجز عنه مَن هو أقوىٰ منّا ، وأشد شوكة ، ولكنني أرى أنْ نَصرفه بشيءٍ نؤدّيه إليه ، فنصرفه عامنَا هذا ، ونرى رأينا » . فوافقوه على رأيه ، فأقبل خُوارزم شاه ، فنزل في مدينة الفيل ، من وراء النهر ، « وكانت مدائن خوارزم الرئيسية ثلاثة ، لكنّ « فيل » كانت أكثرَهن منعة وقوةً وتحصينًا » وبقي نهرُ بلخ هو الفاصل بين مواقع قوات قتيبة في هزارسب ، ومكان نزول ملك خوارزم في « فيل » ، وتمّ الصلح على عشرة آلافِ رأسٍ وعيْن ومتاع ، بشرط أن يساعده على مَلِك خام جرد ، وأن يفي له بما كتب إليه ، فقبل ذلك منه قتيبة ، ووفّى له ، إذْ بعث قتيبةُ أخاه إلى ملك خام جرد – الذي كان يُناصب خوارزم شاه العداء – فقاتله ، فقتله عبد الرحمٰن ، واجتاح حدود بلاده ، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير ، فقتلهم . ودفع قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومَن كان يخالفه ، فقتلهم وصادرَ أموالهم ، وبعث بها إلى قتيبة . ودخل قتيبة مدينة « فيل » ، فقبل من خوارزم شاه ما صالحه عليه ، ثم رجع إلى هزارسب .

يومُ سمرقند سنة ثلاث وتسعين هجرية :

ما إنْ أمضى قتيبة الصلح مع حاكم خوارزم – ملكها – حتى تقدّم إليه المجشر بن مزاحم السُّلمي ، وطلب التحدُّث إليه على انفراد ، وعندما تمّ له ذلك ، قال المجشر لقتيبة : « إن أردت السغد يومًا من الدهر ، فالآن ؛ فإنهم آمنون مِن أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام » . وسأله قتيبة : « هل أشار بهذا عليك أحد ؟ » . وأجابه المجشر بالنفي ، وعاد يسأله : « وهل أعلمتَه أحدًا ؟ » . فأجاب المجشرُ بالنفي أيضًا ، وعندها قال

له قتيبة : « واللهِ لئن تكلّم به أحد لأضربنّ عنقك » . ثم إنّ قتيبة أقام يومه ، فلمّا أصبح من الغدِ ، دعا عبد الرحمٰن فقال : « سِرْ في الفرسان والمُرامية ، وقَدِّمِ الأثقال إلى مَرْو » . ومضى عبدُ الرحمٰن يَتْبعُ الأثقال ، يريد مَرْو يومَه كله ، فلمّا أمسى كتب إليه : « إذا أصبحتَ فوجِّهِ الأثقال إلى مَرْو ، وَسِرْ في الفُرسان والمُرامية نحو السغد ، واكتم الأخبار ، فإني بالأثر أَتْبعك » . ولمّا وصلتِ الرسالة ، أمر عبد الرحمٰن أصحاب الأثقال أنْ يمضُوا إلى مَرْوَ ، وسار حيث أمره ، وخطب قتيبة الناس فقال : « إن الله قد فَتَحَ لكم هذه البلدة في وقتٍ الغَزْوُ فيه ممكن ، وهذه السغدُ شاغرةٌ برجلها – رجالها – قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنّا صالَحْنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله : ﴿ **فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِهِ** ﴾ [الفتح : ١٠] ، فسيروا على بركة الله ، فإني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة . وقال الله : ﴿ **وأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِروا عَلَيهَا قد أَحَاطَ اللهُ بِهَا** ﴾ [الفتح : ٢١] . ووصل قتيبة إلى السغد وقد سبقه إليها عبد الرحمٰن بن مسلم في عشرين ألفًا ، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبُخارىٰ ، بعد ثلاثة أيام من نزول عبد الرحمٰن بهم ، فقال : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ **فَسَاءَ صَبَاحُ المُنذَرينَ** ﴾ » . [الصافات : ١٧٧] . وبدأت مرحلة حصار السغد التي استمرّت شهرًا ، حدثت خلاله مجموعةٌ من المعارك والاشتباكات في قطاع واحد .

اشتدّ الحصار على أهل السغد ، وخافوا طول الحصار ، فكتب « غَوْزَك » ملك السغد رسائل إلى ملك الشاش ، وإخشاذ فرغانه وخاقان الترك ، جاء فيها : « إنا نحن دونكم ، فيما بينكم وبين العرب ، إنْ ظفروا بنا عادوا ، فأغاروا عليكم بمثل ما أتونا به ، وأصبحتم أضعف وأذل ؛ فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها » . واستجاب الملوك لدعوة « غوزك »

ملك السغد ، وطلبوا إليه مقاومة العرب وخِداعهم ، حتى يباغتوا العرب ، واجتمع هؤلاء الملوك ، فقالوا : « إنما نُؤتىٰ من سفَلتِنَا ، وإنهم لا يجدون لِوَجْدنا ، ونحن معشر الملوك المعنيُّون بهذا الأمر ، فانتخبوا أبناء الملوك ، وأهل النجدة مِن فتيان مُلُوكِكم ، فلْيخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة مُباغتةً ؛ فإنه مشغول بحصار السغد » . وانتخبوا فرسانًا من أبناء المرازبة ، والأساورة الأشداء الأبطال ، وولَّوْا عليهم ابنًا لخاقان ملك الترك ، وأمروهم أن يباغتوا قتيبة بهجومٍ ليليٍّ . وبلغ قتيبة ذلك ، فانتخب أهل النجدة والبأس ، حتى بلغ عددهم أربعمائة ، ثم جمعهم وقال لهم : « إن عدوَّكم قد رأوا بلاء الله عندكم ، وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومُكاثرتكم ، كلُّ ذلك يَفلُجكم لِينصركم الله عليهم . فأجمِعُوا على أن يحتالوا عزّتكم وبَياتكم ، ليباغتوكم بهجوم ليلي ، واختاروا دهاقينهم وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد فضّلكم الله بدينه ، فأبلُوا اللهَ بلاءً حسنًا تستوجبون به الثواب ، مع الذَّبِّ عن أحسابكم » . ووضع قتيبة عيونًا - جواسيس - على العدو ، حتى إذا قربوا منه قدْر ما يصلون إلى عسكره من الليل ، دفع الذين انتخبهم ، بعد أن حضّهم على القتال ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من المعسكر عند المغرب ، فساروا ونزلوا على فرسخيْن من العسكر ، عن طريق القوم الذين وصفوا لهم ، ففرّق صالِح خيله ، وأكمن كمينًا عن يمينه ، وكمينًا عن يساره ، وأقام مع مجموعة من الفرسان على قارعة الطريق ، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه ، جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت ، وهم آمِنون في أنفسهم من أنْ يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة ، ولم يعلموا بمكان صالح حتى اصطدموا به ، حتى إذا اختلفت الرماح ، واشتدّتِ المعركة ، خرج الكمينان عن يمينٍ وشمالٍ ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، حتى قال أحد الذين اشتركوا في قوة الكمين : « حصرناهم ، فما رأيتُ

قَطُّ قومًا كانوا أشدّ قتالًا مِن أبناء أولئك الملوك ، ولا أصبر ، فقتلناهم فلم يفلت منهم إلا نفرٌ يسير ، وحَوَينا سلاحهم ، واحتززنا رءوسهم ، وأسرْنا منهم أسرى ، فسألناهم عمَّن قتلنا ، فقالوا : ما قتلتم إلا ابن مَلِك ، أو عظيمًا من العظماء ، أو بطلًا من الأبطال ، ولقد قتلتم رجالًا إنْ كان الرجل لَيعدِل بمائة رجل » . وقال مقاتِلٌ آخر : « إنّا لَنختلفُ عليهم بالطعن والضرب ، إذْ تبيّنت تحت الليل قتيبةَ ، وقد ضربتُ ضربة أعجبتني وأنا أنظر إلى قتيبة ، فقلت : كيف ترى ، بأبي أنت وأمي ؟! قال : اسكت ، دقَّ اللهُ فاك . قال : فقتلناهم ، وأقمنا نحوي – نجمع – الأسلابَ ، ونحتزّ الرءوسَ حتى أصبحنا . ثم أقبلنا على المعسكر ، فلم أرَ جماعة قَطّ جاءوا بمثل ما جئْنا به ، ما منا رجل إلا معلّقٌ رأْسًا معروفًا باسمه ، وأسير في وثاقه ، مع ما سلبْنا من جيّد السلاح وكريم المتاع ومناطق الذهب ودوابَّ فُرَّهَةٍ ، فنفلَنَا قتيبة ذلك كله . وقال : جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرًا . وأكرمني قتيبةُ ، من غير أن يكون باحَ لي بشيء ، وقَرن بي – في الصلة والإكرام – حيانَ العدوي وحُليًا الشيباني ، فظننتُ أنه رأى منهما مثل الذي رأى مني ، وكسر ذلك أهلَ السغد ، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية ، فأبى وقال : أنا ثائر بدم طَرْخون ، كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي » .

استمرت الحرب ، وأخلص أهل بخارىٰ وأهل خوارزم القتالَ إلى جانب قتيبة ، فأرسل « غوزك » ملك السغد إلى قتيبة ، يقول له : « إنما تقاتلني بإخوتي ، وأهل بيتي من العَجَم ، فأْخرِجْ إليَّ العرب » . فغضب قتيبة ودعا الجدلي ، فقال : « اعرض الناس ومَيِّز أهل البأْس » . فجمعهم ، ثم جلس قتيبة يعرضهم بنفسه ، ودعا العُرفاءَ ، فجعل يدعو برجلٍ رجلٍ ، فيقول : « ما عندك ؟ » . فيقول : « العريف شجاع » . ويقول : « ما

هذا ؟ » . فيقول : « مختصر » . ويقول : « ما هذا ؟ » فيقول : « جبان » . فسمَّى قتيبة الجبناء : الأنتان ، وترك لهم رثَّ السلاح ، ثم زحف بهم فقاتلهم بهم فرسانًا ورجالًا ، واستمرّ الصراع بين الفرسان ، في حين برز قتيبة بسريره ، وقعد عليه ليتابع المعركة ، وحمل السغد على المسلمين حملة حطَّموهم حتى جازوا عسكرهم ، وقتيبة محتبٍ بسيفه ما حَلَّ حَبْوته ، وانطوت مُجنِّبتا المسلمين على الذين هزَموا القلب ، فهزموهم حتى ردُّوهم إلى عسكرهم ، وقُتل من المشركين عددٌ كبير ، ودخلوا مدينة سمرقند وتحصَّنوا بها ، ورمى قتيبة المدينة بالمجانيق ، فثَلَم ثلْمةً ، فسدّوها بغرائز الدَّخن ، وأطال قتيبة المقام ، واستمرّ في رمْي سمرقند بالمنجنيق ، فثلم فيها ثلمة . وقال قتيبة : « ألِحُّوا عليها حتى تعبُروا الثلمة » . فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة ، ورماهم السغدُ بالنشاب ، فوضعوا تُرُسَهم ، فكان الرجل يضع ترْسَه على عينه ثم يحمل ، حتى صاروا على الثلمة ، فقالوا له : « انصرفْ عنا اليوم حتى نصالحك غدًا » . وأجاب قتيبة : « لا نصالحهم إلا ورجالُنا على الثلمة ، ومجانيقنا تخطر على رءوسهم ومدينتهم » . وفشل اقتحام الثغرة (الثلمة) ووقف عليها رجل وهو يشتم قتيبة بالعربية الفصحى ، وأسرع المسلمون نحو الرجل وهو مُلِحٌّ بالشتم ، في حين كان قتيبة مُحتبيًا بشملة ، وهو يردّد - كالمناجي لنفسه -: « حتى متى يا سمرقند يُعشش فيك الشيطان ؟! أمَا واللهِ لئنْ أصبحتُ لأحاولنَّ من أهلك أقصى غاية » . وسمعه أحد القادة ، فانصرف عن قتيبة ، وانضمّ إلى أصحابه ليقول لهم : « كم مِن نفس أبيّة ستموت غدًا منا ومنهم ! » . ثم إنَّ قتيبة الْتفتَ إلى مَن حوله وقال لهم : « اختاروا منكم رجليْن » . فاختاروا ، فقال : « أيُّكما يَرمي هذا الرجل ، فإنْ أصابه فله عشرة آلاف ، وإنْ أخطأه قطعت يده ؟ » . فتلكّأ أحدهما ، وتقدم الآخر ،

فرماه ، فلم يخطئْ عينَه ، وقال هذا الرامي – وهو خالد بن باب مَوْلَى مُسلم بن عمرو – : « كنت في رُماة قتيبة ، فلمّا افتتحنا المدينة صَعِدتُ السُّور ، فأتيت مُقام ذلك الرجل الذي كان فيه ، فوجدتُه ميّتًا على الحائط ، ما أخطأتِ النُّشابة عينَه حتى خرجتْ من قفاه » . ثم أصبح المسلمون مِن غدٍ فرموا المدينة ، فثَلَموا فيها . وقال قتيبة : « ألحوا عليها حتى تعبروا الثلْمَة (الثغرة) » .

وحمل المسلمون بقوة ، فدخلوا مدينة سمرقند ، فصالحهم أهلها ، واشترط قتيبة أنْ يسلّمه أهلُ سمرقند ثلاثين ألفًا ، كرهينةٍ في قبضته ، ليس فيهم صبيٌّ ولا شيخ ولا عيب ، كما اشترط إخلاء المدينة مِن كلّ مقاتِل ، وأنّ يُبنَى له فيها مسجدٌ ، فيدخل ويصلي ، ويُوضع له فيها منبرٌ فيخطب ، ويتغدى ويخرج ، ونفَّذ أهل سمرقند شروط قتيبة ، فقال : « الآن ذلُّوا حين صار إخوانهم وأولادهم في أيديكم » . ودخل قتيبة سمرقند ، فصلّى وخطب ثم تغدَّى ، وأرسل إلى أهل السغد : « مَن أراد منكم أنْ يأخذ متاعَه فلْيأخذه ، فإني لست خارجًا منها ، وإنما صنعتُ هذا لكم ، ولستُ آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، غير أنّ الجندَ يُقيمون فيها » . وبعد ذلك جمع قتيبة ما تحتويه بيوت النيران وحِليةَ الأصنام ، فكانت كالقصر العظيم حين جُمعت ، فأمر بتحريقها ، فقالتِ الأعاجم : « إنّ فيها أصنامًا مَن حَرَقَهَا هلك » ، فقال قتيبة : « أنا أحرقها بيدي » . ودعا قتيبة بالنار ، وأخذ شعْلةً بيده ، وخرج فكبر ، ثم أشعلها ، وأشعل الناسُ ، فاضطرمتْ ، فوجدوا مِن بقايا ما كان فيها – مِنْ مسامير الذهب والفِضَّة – خمسين ألفِ مثقال ، وتلا قتيبة ﴿ **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** ﴾ [النجم : ٥٠ – ٥١] .

ارتحل قتيبةُ راجعًا إلى مرو ، واستخلف على سمرقند عبدَ الله بنَ مسلم ، وخلّف عنده جندًا كثيفًا ، وآلةً من آلات الحرب كثيرة ، وقال : « لا تَدَعنَّ مشركًا يدخل بابًا من أبواب سمرقند إلا مختومَ اليدِ ، وإنْ جَفَّتِ الطينةُ قبل أن يخرج فاقتلْه . وإنْ وجدتَ معه حديدةً أو سكِّينًا – فما سواه – فاقتلْه . وإنْ أغلقتَ البابَ ليلًا ، فوجدتَ فيها أحدًا منهم فاقتلْه » .

لله دَرُّكَ يا قتيبة !

ولمّا فتح قتيبة سمرقند ، وقفَ على جبلها ، فنظر إلى الناس متفرّقين في مروج السغد ، فتمثّل قول طَرَفة بن العبد :

وَأَرْتَعَ أقــوام ولولا مَحَلُّنَــا ... بمخشيةٍ رَدُّوا الجِمَال فَقَوَّضُوا

ودعا قتيبة « نهارَ بن توسعة » حين صالح أهلَ السغد ، فقال : « يا نهار ، أين قولك :

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ المُقرِّبُ للغِنَى ... وماتَ النَّدى وَالجودُ بعد المهلّبِ
أقامَا بِمَرو الرُّوذِ رهنَ ضريحِهِ ... وقدْ غُيِّبَا عَنْ كلّ شرقٍ ومَغربِ

أفغزوٌ هذا يا نهار ؟ » . قال : « لا ، هذا أحسن ؛ إنّ الذي أنت فيه ليس بالغزو ولكنه الحرب ، وأنا الذي أقول :

وَمَا كَانَ مُذْ كُنَّا وَلَا كَانَ قَبْلَنَا ... ولا هُوَ فِيمَا بعدَنَا كابنِ مُسلمِ
أَعَمَّ لأهلِ الترك قَتْلًا بسيفِهِ ... وَأَكْثَرَ فينا مَقْسِمًا بعدَ مَقْسِمِ »

وقال الشاعر :

كلَّ يومٍ يَحوي قتيبةُ نَهْبًا ... ويزيدُ الأموال مالًا جديدَا
باهِلِيٌّ قَدْ أُلْبِسَ التاجَ حَتَّى ... شابَ منهُ مَفارقٌ كُنّ سُودَا
دَوّخ الصَّغْدَ بالكتائبِ حَتَّى ... تركَ الصغدَ بالعراءِ قُعودَا
فَوليدٌ يبكي لِفَقْدِ أبيه ... وأبٌ مُوجَعٌ يُبَكّي الوليدَا

كُلّمَـا حَـلّ بلـدةً أوْ أتَاهَـا تركـتْ خيلُهُ بِهَـا أُخْـدودَا[١]

غَزْو الشَّاش وفرغانة سنتَي أربعٍ وتسعين وخمسٍ وتسعين هجرية[٢] :

انطلق قتيبة لمتابعة فتوحاته في بداية فصل الربيع - كعادته - عامَ أربعٍ وتسعين هجرية ، ولمّا أنْ عبر نهر سمرقند ، فرض على أهل بخارىٰ و« كس » و« نسف » وخوارزم ، تقديمَ عشرين ألفِ مقاتلٍ ، ثم سار بهم إلى السغد ودفعهم إلى الشاش ، في حين تابع تقدُّمه بقواته إلى فرغانة ، وعندما وصل « خجندة » ، اصطدم بمقاومةٍ قويةٍ نظّمها أهل « خجندة » ؛ ودارت معارك مستمرة ، كانت قوات المسلمين تخرج كلَّ يومٍ منها بانتصاراتٍ جزئية ، دون الوصول إلى نصر حاسم ، وفرغ الناس من قتالهم ذات يوم ، فركبوا خيولهم وانتشروا في كلّ مكان ، فوصل منهم رجل إلى موقعٍ مرتفع يُشْرف على السهل ، ونظر فيما حوله ، فقال لصاحب له : « تاللهِ ما رأيتُ كاليوم غرّة ، لو كان هيجٌ - قتال - اليوم ونحن على ما أرى مِن الانتشار لكانت الفضيحة » . فقال له صاحبه : « كلا ، نحن كما قال عوفُ بن الجزع :

نَـؤُمُّ البـلادَ لِحُـبِّ اللِّقَـا وَلَا نَتّقي طـائرًا حيثُ طَـارا
سَنيحًـا ولا جـاريًا بَـارِحًا علىٰ كلِّ حالٍ نلاقي النّسارا »

ثم أتى قتيبةُ « كاشان » - مدينة تابعة لفرغانة - وأتاه الجنود الذين وجّههم إلى الشاش ، وقد فتحوها وحرّقوا أكثرها ، وانصرف قتيبة إلى مرو .

كان والي العراق ، الحَجّاج بن يوسف الثقفي يتابع عمليات قادته في أقصىٰ الشرق ، حيث كان محمد بن القاسم الثقفي قد فتح السند -

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٩١ .

(٢) إقليم الشاش : هو الإقليم الذي يقع شمال نهر سيحون ، وأمّا فرغانة : فهو الإقليم الذي يمتدُّ فيما وراء نهر سيحون ، ويُتاخم التركستان .

باكستان – وأخذ في فتح الهند ، وقد عرف الحجّاج أنّ قتيبة في حاجة لمزيد من الدعم ، حتى يستطيع متابعة فتوحاته ، فأرسل الحجاج إلى محمد بن القاسم أمْرًا ، جاء فيه : « وَجِّهْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ أهل العراق إلى قتيبة ، ووجّهْ عليهم جَهْم بن زَحْر بن قيس ؛ فإنه في أهل العراق خيرٌ منه في أهل الشام » . ومضى جهم بن زَحْر إلى قتيبة ، وأصبحت فتوح قتيبة مِن نصيب أهل العراق ، فيما بقيتْ فتوح السند والهند من نصيب أهل الشام .

وصل جيش العراق بقيادة زَحْر إلى مرو في عام خمسٍ وتسعين هجرية ، وقتيبة يستعدّ لهجومه السنويّ ، وانطلق قتيبة حتى وصل الشاش – أو بكشُمَاهن – وهناك بلَغَه موتُ الحجاج ، فَغَمَّهُ ذلك وَقَفَلَ راجعًا ، ووزّع قواتِهِ ، فترك قوةً في بخارىٰ ، ووجَّه قوةً أُخرىٰ إلى كس ونسف ، ثم أتى مرو فأقام بها ، ومكث ينتظر تعليماتِ أمير المؤمنين ، ولم تمضِ سوىٰ فترة قصيرة ، حتى جاءه كتاب الوليد بن عبد الملك ، يحضُّه على متابعة الجهاد ، وفيه : « قد عَرَف أميرُ المؤمنين بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعُك وصانعٌ بك كالذي يجب لك ، فالْمُمْ مغازيَك ، وانتظرْ ثواب ربّك ، ولا تُغيِّبْ عن أمير المؤمنين كتُبك ، حتى كأني أنظر إلى بلادِك والثغرِ الذي أنت فيه » .

وهكذا أقرّ الوليدُ العمالَ الذين كان الحجاج قد عينهم ، وكان ذلك حافِزًا لقتيبة حتى يتابع فتوحَه .

نهايةُ فُتوحِ قُتيبةَ : فتح « كاشغر » ، وغزوُ الصِّين ، سنة ستٍّ وتسعين هجرية :

غادر قُتيبة بجيشه قاعدةَ عمليّاته في مرو ، وعندما وصل إلى فرغانة ، بلغه موت أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وانتقال الإمارة إلى أخيه

سليمان ، فتوجَّس قتيبة شرًّا لوجود بغضاء بينهما ، وقرّر اتخاذ ما هو ضروريّ من تَدَابير لتأمين عائلته ، خوفًا من البطش بهم ، فنقلهم إلى سمرقند ، ووضع على نهر جيحون رجلًا من مواليه ، يقال له : الخوارزمي ، وكلّفه بإقامة مركز مراقبةٍ عند مقطع النهر ، ومنع المرور إلَّا لمن يحمل إذنًا بالعبور مِن قِبل قُتيبة ، ثم إنّه أرسل قوة استطلاع ، لارتياد شِعب عصام ، وتمهيد الطريق للتقدُّم نحو كاشغر ، وهي أدنى مدائن الصين ، ومضى قتيبة بعد ذلك فأوغل في تقدُّمه حتى قرب من الصين . فكتب إليه ملك الصين : « أنِ ابعث إلينا رجلًا من أشراف مَنْ معكم يخبرنا عنكم ، ونُسائله عن دينكم » . فانتخب قتيبةُ من عسكره اثني عشر رجلًا من أبناء القبائل ، لهم جمالٌ وأجسام وأَلْسُن وشعور وبأس ، بعد ما سأل عنهم ، فوجدهم من أفضل الرجال الذين يمكن اعتمادهم ، وتحدّث إليهم ، فتأكّد مِن صحة انتقائهم ، رجولةً ورجاحةَ عقلٍ ، فأمر لهم بعُدّة حسنة من السلاح ، والمتاع الجيّد ، من الخزّ والوَشْي ، واللّين من البياض والرقيق ، والنعال والعطر ، وحمَلهم على خيول مُطَهّمةٍ تُقاد معهم ، ودوابَّ يركبونها ، وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مُفّوهًا ، زَلِق اللسان ، فقال : « يا هبيرة ، كيف أنت صانع ؟ » . قال : « أَصلح اللهُ الأمير ! قد كُفيتَ الأدبَ ، وقلْ ما شئتَ أقلْه ، وآخُذ به » . قال : « سيروا على بركة الله ، وباللهِ التوفيق ، لا تضعوا العمائمَ عنكم حتى تقْدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه ، فأعلموه أني قد حلفتُ ألا أنصرِف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكَهم ، وأجبي خراجَهم » .

وانطلق الوفد بقيادة هبيرة بن المشمرج ، فلمّا قدِموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمَّام ، ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضاء تحتها الغلائل ، وتطيّبوا بالبخور والعطور وَلَبِسوا النعال الرقيقة . وارتدَوْا الأَرْدِيَة ،

ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا ، فلم يكلّمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه ، فنهضوا ، فقال الملك لمن حضر المجلس : « كيف رأيتم هؤلاء ؟ » . قالوا : « رأينا قومًا ما هم إلا نِسَاء » . فلما كان الغد أرسَلَ إليهم فَلَبِسوا الوَشْي وعمائم الخز والمطارف ، وغَدَوْا عليه ، فلما دخلوا عليه ، قيل لهم : « ارجعوا » ، فقال لأصحابه : « كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ » . قالوا : « هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال مِن تلك الأولى . وهم أولئك » . فلمّا كان اليوم الثالث أرسل إليهم ، فشدّوا عليهم سلاحهم ، ولَبسوا البيض والمغافِرَ ، وتقلّدوا السيوف ، وأخذوا الرماح وتنكّبوا القِسِيّ ، وركبوا خيولَهم ، وغَدَوْا ، فنظر إليهم صاحب الصِّين ، فرأى أمثال الجبال ، فلما دَنَوْا ركزوا رماحَهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين وقد أثاروا الفزع ، مما حمَل الصّينيّين على منعهم والطلب إليهم العودة قبل الدخول إلى مجلس المَلِك ، فانصرفوا . وركبوا خيولهم ، واختلجوا رماحهم ، ثم دفعوا خيولهم حتى كأنها تطير بهم ، فقال الملك لأصحابه : « كيف ترونهم ؟ » . قالوا : « ما رأينا مثلَ هؤلاء قطُّ » . فلمّا أمسىٰ ، أرسل إليهم الملك أنِ ابعثوا إليَّ زعيمكم وأفضلَكم ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له – حين دخل عليه – : « قد رأيتم عِظَم مُلكي ، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم بمنزلة البَيْضة في كفِّي ، وأنا سائلك عن أمرٍ ، فإنْ لم تصدقني قتلتُكم » . قال : « سَلْ » . قال ملك الصين : « لِمَ صنعتم من الزّيّ في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ » . قال هبيرة : « أمّا زِيُّنا الأول ، فلباسنا في أهلنا وريحنا عندهم ، وأمّا يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءَنا ، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لِعدوّنا ، فإذا هاجنا هَيْجٌ أو فَزَع ، كنا هكذا ... » . قال الملك : « ما أحسن ما دبّرتم دهركم ! فانصرِفوا إلى صاحبكم ، فقُولوا له ينصرف ؛ فإني عرَفتُ حرْصَه وقلّة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم

مَنْ يُهلِككُم ويُهلكه » . قال له هبيرة : « كيف يكون قليلَ الأصحاب من أوّلُ خيلهِ في بلادك وآخرها في منابت الزَّيتون ؟! وكيف يكون حريصًا مَن خلّف الدنيا قادِرًا عليها وغزاك ؟! وأمّا تخويفُك إيّانا بالقتل ، فإنّ لنا آجالًا إذا حضرتْ فأكرمُها القتل ، فلسنا نكرهُهُ ولا نخافُه » . قال : « فما الذي يُرضي صاحبَك ؟ » . قال : « إنه قد حلف ألا ينصرفَ حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوكَكم ، ويُعطى الجزية » . قال : « فإنا نُخرجه مِن يمينه ، نبعث إليه بترابٍ مِن تُراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزيةٍ يرضاها » . ثم دعا ملك الصين بصِحافٍ مِن ذهبٍ فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمانٍ من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسنَ جوائزهم ، فساروا ، فقدِموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختَم الغلمة وردَّهم ، ووطِئَ الترابَ . وأوفد قتيبة هُبيرة للاتصال بأمير المؤمنين في دمشق ، فمات بقريةٍ مِن فارس .

وهل في الهِمَم فوقَ هذا ؟! وهل العزُّ إلَّا هذا .. تَعجزُ كلماتُ الدنيا أمام هذا الأريجِ الفوّاح الذي لا يُوصَف بلسان .. وفي هذا قال سوادة ابن عبد الله السّلولي :

لا عيبَ في الوفدِ الذين بَعَثْتَهُمْ ... للصينِ إنْ سَلَكُوا طريقَ المنهَجِ
كَسَرُوا الجفونَ على القَذَى خوْفَ الرَّدَى ... حَاشَا الكريمَ هبيرةَ بنَ مُشَمْرَجِ
لمْ يرضَ غَيْرَ الخَتْمِ في أعناقِهِمْ ... ورهائِنٍ دُفِعَتْ بِحَملٍ سَمْرَجِ
أدَّى رِسالتَكَ التي اسْتَرعيْتَهُ ... وأتاكَ من حِنْثِ اليمينِ بمخْرجِ

لله دَرُّ قتيبةَ ! وأيُّ شأنهِ لم يكنْ عَجَبًا ؟

كان قتيبة إذا رجع من غزاته كلَّ سنة ، اشترى اثني عشر فرسًا من جياد الخيل ، واثني عشر هجينًا ، فيتركها لمن يرعاها ويعتني بها حتى

موعد الحرب ، فإذا تأهب لذلك ، وأقام معسكره ، قُيِّدَتِ الخيولُ وأُضْمِرَتْ ، فلا يقطع نهرًا بخيلٍ حتى تَخِفَّ لحومُها ، فيحمل عليها مَن يحمله في الطلائع ، وكان يبعث في الطلائع الفرسانَ من الأشراف ، ويبعث معهم رجالًا من العجم ، ممّن يُستنْصَح على تلك الهُجُن - كأدِلَّاء - وكان إذا أمر بطليعةٍ ، أمر بلَوْحٍ فنُقش ، ثم يَشقُّه شَقَّتيْن ، فيعطي شقّةً إلى قائد الطليعة ، ويحتفظُ بالشّقِّ الآخر ، ويأمره أنْ يدفِن الشّقَّ في موضعٍ يحدّده له ، من مخاضة معروفة ، أو تحت شجرة معلومة ، أو خَرِبة مُميّزة ، ثم يبعث بعده مَن يسترجعها ليتأكّد مِن صحّة تنفيذ الطليعة لواجبها الاستطلاعي[1] .

فرحم الله قتيبة وغفرَ له ، مضىٰ إلى ربِّه ، وبقيتْ فتوحاتُه وأيّامُه مناراتٍ تُضيءُ أعماق التاريخ ، وتُرسل بظلالها إلى نهاية التاريخ .

يقول الحافظ ابن كثير - عَن قتيبة - في « البداية والنهاية » (٩ / ١٤٩) : « يُقال : إنه ما كسرت له رايةٌ . وكان من المجاهدين في سبيل الله ، واجتمع له مِن العساكر ما لم يجتمع لغيره » .

ويقول أيضًا في « البداية والنهاية » (٩ / ١٧٥ - ١٧٦) : « كان قتيبة بن مسلم أبو حفص الباهلي مِن ساداتِ الأمراء وخيارهم ، وكان مِن القادة النُّجباء الكُبَراء والشجعان ، وذوي الحروب والفتوحات السعيدة ، والآراء الحميدة ، وقد هدىٰ الله على يديْه خلقًا لا يحصيهم إلَّا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ، وفتَح مِن البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئًا كثيرًا ، واللهُ سبحانه لا يُضيّع سَعْيَهُ ، ولا يخيّب تعبَه وجهادَه .

ولكن زلَّ زلَّةً كان فيها حَتْفُهُ ، وفعل فِعْلةً رَغِمَ فيها أنفُه ، وخلَع

---

(١) قتيبة بن مسلم لبسَّام العسلّي ، من صـ ٢٥ - ٢٨ ، مختصرًا .

الطاعة فبادرتِ المنية إليه ، لكِنْ سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفّر الله بها سيئاته ، ويضاعف بها حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبّل منه ما كان يكابده مِنْ مُناجَزة الأعداء » ، فرحمه الله رحمةً واسعة .

كأنّ أبا حفصٍ قتيبةَ لَمْ يَسِرْ ... بجيشٍ إلى جيشٍ ولمْ يَعْلُ مِنْبَرا
ولمْ تَخْفِق الراياتُ والقومُ حَوْلَهُ ... وُقُوفٌ وَلَمْ يشهدْ لَهُ الناسُ عَسْكَرَا

رحمة الله على البطل الذي أذلّ ملوكَ الكُفر .

مضَىٰ ابنُ سعيدٍ حيثُ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ... ولا مغـربٌ إلَّا لَهُ فيهِ مَـادِحُ
كأنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ ... عَـلَىٰ أحـدٍ إلَّا عَلَيْكَ النَّوائِحُ
لَئِنْ حَسُنَتْ فِيكَ المَرَاثي وذكْرُهَا ... لقدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فيكَ المَدَائِحُ

الأَميرُ الضِّرْغامُ ، قائدُ الجيوش ، الجَرَادَةُ الصَّفراءُ ، أبو سعيدٍ مَسْلمةُ بنُ عبدِ المَلِك :

هكذا نعتَه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٥ / ٢٤١) ، وقال أيضًا : « له مواقف مشهودةٌ مع الروم ، وهو الذي غزا القسطنطينيّة ، وكان ميمونَ النقيبةِ .

قال اللَّيْث : وفي سنةِ تسعٍ ومائة غزا مَسْلمة التُّركَ والسند » .

وقال الذهبي أيضًا (٥ / ٢٤١) : « قلت : كان أَوْلَىٰ بالخلافة من سائر إخوتِهِ ، وفيه يقول أبو نُخَيْلَةَ :

أمسلمُ إني يا ابنَ خيرِ خليفةٍ ... ويا فارسَ الهَيْجَاءِ يا جَبَلَ الأرضِ
شكرتُكَ إنَّ الشّكْرَ حَبْلٌ مِنَ التُّقَىٰ ... وما كلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نعمةً يُعْضِي »

في سنة ستٍ وثمانين : غزا مسلمةُ بلاد الروم ، فقتل وَسَبَىٰ وغنِمَ وَسَلِمَ ، وافتتح حصن « بولق » ، وحصن « الأخرم » ، من أرض الروم .

وفي سنة سبْعٍ وثمانين : غزا مسلمة بلاد الروم ، فقتل منهم خلقًا كثيرًا ، وفتح حصونًا كثيرةً ، وَغَنِمَ غنائمَ جَمَّةً .

وفي سنة ثمانٍ وثمانين : « غزا الصائفةَ مسلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حِصنَ « طوانة » ، في جمادى من هذه السنة – وكان حصنًا منيعًا – اقتتل الناسُ عنده قتالًا عظيمًا ، ثم حمل المسلمون على النصارىٰ ، فهزمُوهم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجتِ النصارىٰ فحملوا على المسلمين ، فانهزم المسلمون ، ولم يبقَ أحد منهم في موقفه ، إلَّا العباس بن الوليد ومعه ابن مُحَيْريز الجمحي ، فقال العباس لابن محيريز : أين قُرَّاء القرآن الذين يريدونَ وجهَ الله عز وجل ؟ فقال : نادِهِمْ يأتوك . فنادىٰ : يا أهل القرآن . فتراجع الناسُ فحملوا على النصارىٰ ، فكسروهم ولجئوا إلى الحصن ، فحاصروهم حتى فتحوه »[1] .

وفي سنة تسعٍ وثمانين : « غزا مسلمة وابن أخيه العباس بلادَ الروم ، فقتلا خلقًا كثيرًا ، وفتحا حصونًا كثيرة ، منها حصن « سورية » و« عَمورية » و« هرقلة » و« قمورية » ، وغَنِمَا شيئًا كثيرًا وأَسَرَا جَمًّا غفيرًا »[2] .

وفي سنة تسعين من الهجرة : غزا مَسْلَمَة والعباس بلاد الروم ، ففتحا حصونًا ، وقتلا خلقًا من الروم وَغَنِمَا ، وأسرا خلقًا كثيرًا .

وفي سنة إحدى وتسعين : « غزا الصائفةَ مسلمةُ بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد ، وفيها غزا مسلمة بلادَ الترك ، حتى بلغ البابَ

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٧٩ .
(٢) البداية والنهاية ٩ / ٨١ .

مِن ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصونًا كثيرةً أيضًا »[١].

وفي سنة اثنتين وتسعين : « غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ، ففتحا حصونًا كثيرةً وَغَنِمَا شيئًا كثيرًا ، وهربتْ منهم الرومُ إلى أقصىٰ بلادهم »[٢].

وفي سنة أربع وتسعين : افتتح مسلمة « سندرة » ، مِن أرض الروم .

وفي سنة خمس وتسعين : فتح مسلمة بن عبد الملك مدينةً في بلاد الروم ، ثم حرّقها ، ثم بناها بعد ذلك بعشرِ سنين .

وفي سنة سبعٍ وتسعين : غزا مسلمة بن عبد الملك أرضَ « الوضاحية » ، ففتح الحصن الذي بناه « الوضاح » صاحب الوضاحية ، وفيها غزا مسلمة أيضًا « برجمة » ففتح حصونًا و« برجمة » وحصن « الحديد » و« سررا » ، وشتّى بأرض الروم .

قال ابن كثير : « قال الزبير بن بكّار : كان مَسلمةُ مِن رجال بني أُميّة ، وكان يُلقَّب بالجرادة الصفراء ، وله آثارٌ كثيرة ، وحروبٌ ونِكاية في العدو ، من الروم وغيرهم . قلتُ : وقد فتح حصونًا كثيرة من بلاد الروم . ولمّا وُلّي غزْوِ « أرمينية » ، غزا الترك ، فبلغ بابَ الأبواب ، فهدم المدينة التي عنده ، ثم أعاد بناءَها بعد تسع سنين .

وفي سنة ثمانٍ وتسعين : غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصَّقَالِبَة ، وكَسَرَ ملكهم « البرجان » ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية ، وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدَّةً عظيمة ، وجاع المسلمون

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٨٦ .
(٢) البداية والنهاية ٩ / ٨٨ .

عندها جُوعًا شديدًا ، فلما وُلّي عمر بن عبد العزيز ، أرسل إليهم البريدَ يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أنْ لا يقلع عنهم حتى يَبْنُوا له جامعًا كبيرًا بالقسطنطينية ، فَبَنَوْا له جامعًا ومنارةً ، فهو بها إلى الآن ، يصلّي فيه المسلمون الجمعة والجماعة . وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومَسَاعٍ مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونًا وقلاعًا ، وأحْيَا بعزمه قصورًا وبقاعًا ، وكان في زمانه في الغزوات نظيرَ خالدِ بن الوليد في أيّامه ؛ في كثرة مغازيه ، وكثرة فُتوحه ، وقوّةِ عزْمه ، وشدَّةِ بأسه ، وجوْدة تصرُّفه في نقْضه وإبْرامه . وقد رثاه بعضهم – وهو ابن أخيه : الوليد بن يزيد بن عبد الملك – فقال :

أقـولُ ومَـا البُعْـدُ إلَّا الرَّدَى ... أمَسْـلمُ لا تبعِـدَنْ مَسْـلمـهْ
فقدْ كنتَ نورًا لنا في البـلا ... دِ مُضيئًا فقد أصبَحَتْ مُظلِمهْ
ونكتُمُ موْتَكَ نَخْشَـى اليقيـ ... ـنَ فأبدَى اليقينُ لنا الجمجُمَهْ »[1]

صَلاحُ الدِّين : سيّدُ المجاهدين ، بَطَلُ حِطِّين ، ومُحَرِّر القُدْس من أَيْدِي الصَّلِيبيِّين :

سلامًا صلاحَ الدينِ يا خير قائِدٍ ... بأمجـادِهِ تاجُ الفـتوحِ تَزَيَّنَـا
سلامًا صلاحَ الدينِ إنَّا بحاجةٍ ... لِمِثلِكَ مَن يُعْلي علَى الحقِّ صَرْحَنَا
بِهِ نُدرِكُ الغـاياتِ طُـرًّا وَإِنَّنَا ... على موعدِ الفجرِ الذي قدْ تَأَذَّنَا[2]

قال العلّامة أبو شامة في كتابه « عيون الرَّوْضتيْن في أخبار الدَّوْلَتيْن »: « قال أبو طيّ حميد النجار : كنتُ بالمَوْصل في سنةِ خمسٍ وخمسين وخمسمائة ،

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤١ – ٣٤٢ .
(٢) « سلامًا صلاحَ الدين » ، من ديوان : « نداء الحق » ، لأحمد محمد الصديق صـ ٢١٠ – ٢١١ – دار الضياء .

فزرتُ الشيخ عمرَ الملّاء ، فدخل إليه رجل ، فقال : أيُّهَا الشيخ ، رأيتُ البارحةَ في النوم كأنّي بأرضٍ غريبة لا أعرفها ، وكأنّها مملوءةٌ بالخنازير ، وكأنَّ رجلًا في يده سيفٌ ، وهو يقتل الخنازير ، والناس ينظرون إليه ! فقلتُ للرجل : هذا عيسىٰ بن مريم ، هذا المهدِي . قال : لا . فقلتْ : مَن هذا ؟ قال : هذا يوسف . ما زادني على ذلك . قال : فتعجَّبتِ الجماعةُ من هذه الرؤيا ، وقالوا : إنه سيقْتُل النصارىٰ رجلٌ يُقال له : يوسف . وحَدَسَتِ الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب ، وكان المُسْتَنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة ، واسمُه يوسف ، فحَدَس بعض الجماعة عليه . قال : وأُنسِيتُ أنا هذه الواقعة ، فلمّا كانت كسرة « حِطِّين » ذكرتها ، فكان يوسفُ « الملكَ الناصِرَ » ، رحمه الله . قال : وحدّثتني ظِئْرٌ لي من نساء الحَلَبِيِّين ، كانت تداخل أختَ السلطان الملك الناصر ، قالت : كانت والدة السلطَان تُخبر أنَّها أُتيتْ في نوْمها – وهي حامِلٌ – بالسلطان . فقيل لها : إنّ في بطنك سيفًا من سيوف الله . رحمة الله عليه ».

استقرّ الأمرُ لصلاح الدين في مصر والشام وكثيرٍ من مدن إقليم الجزيرة ، وقد مرض في إحدىٰ حملاته على إقليم الجزيرة ، فنذَر لَئن شفاه الله ليصرفنَّ كلَّ همّه لقتالِ الفرنجة وفتْح بيت المقدس ، ولَيقتلنَّ صاحبَ الكرك الصليبيَّ بيده ، وكان هذا النذر بإشارةٍ من وزيره القاضي الفاضل : عبد الرحيم البيْسَاني .

بعد هذا بدأ بحملاتٍ مركَّزةٍ على المدن القريبة ، قبل أن يُظفره الله بالفتح الأعظم ، وهو استرجاعُ بيت المقدس ، فقدِ انتصر على الفرنجة في موقعة « مرج عيون » ، سنة ٥٧٥ هـ ، وموقعة « بانياس » ، وأَسر رؤساءهم ، ودمّر حصن « الأحزان » في صفد ، وما زال يناوش الفرنجة حصنًا بعد حصن حتى تجمّع عنده جيش كبير في سهل حطِّين ، حيث كانت الموقعة

الكبرىٰ التي كَسَرت عِظامَ الصَّليبيّين ، ومهَّدتْ لفتح بيت المقدس .

حِطّينُ مَجْزرة للصّليبيّين :

قال أبو شامة في « عيون الروضتيْن » عن سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : « وهي سنة كسرة حطين ، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين ؛ برز السلطان – صلاح الدين – مِن دمشق أوَّلَ المحرَّم في العسكر العَرَمْرَم ، ومضىٰ بأهل الجنة لجهاد أهل جَهَنم ، والتقوا واقتتلُوا إلى الليل ، وقد حيل بين الفرنج وبين الماء ، فباتوا حَيَارىٰ ، ومن العطش سُكارىٰ ، وأصبح يومُ السبت الخامس والعشرين مِن ربيعٍ الآخر ، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة ، وقد برّح بالفرنج العطشُ ، وكان النسيم في وجوههم ، والحشيش تحت أقدامهم ، فرمىٰ بعضُ متطوِّعة المجاهدين النارَ في الحشيش ، وهو هشيمٌ ، فتأجّج عليهم استعارها ، وتوهّج أوارها ، فأوَوْا إلى جبل حطّين ليعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطّين بوارقُ البوار ، ولمّا أحسّ القومص بالكسرة ، هرب بطلبهِ ، وثبت الباقون ، واستقبلوا ، فحطُّوا خيامهم على غارب حطّين ، حين رأوا المسلمين بهم مُحيطين ، فأُعْجِلوا عن ضرْب الخيام بضرب الهام ، وأُحيط بهم مِن حَوَالِيهم ، ودارت الدوائر عليهم ، وترجَّوْا خيرًا ، فترجّلوا عن الخيل ، وجرفهم السيف جرْف السيل ، ومُلِكَ عليهم الصليب الأعظم ، وهو صليب الصلبوت ، فأيقنوا بالهلاك ، فما برِحُوا يُؤسَرُون ويُقْتلون ، ووصل إلى مقدّمهم و« إبرنسهم » وملكهم ، فتمَّ أسْر الملك[1] وإبرنس الكرك[2] ، وأخي الملك جفرىٰ ، و «أوك» صاحب جُبيل ، و « هنفرىٰ بن هنفرىٰ »، وابن صاحب إسكندرونة صاحب مَرَقية ، وأُسِر مَن نجا من القتل ، من

---

(١) الملك جفرىٰ .

(٢) البرنس : أرناط صاحب الشوبك والكرك .

الداويّة ومقدّمها ، والأسبتاريّة ومعظَّمها ، ومِن البارونية مَن أخطأ البوار ، فأصابه الإسار ، وأُسر الشيطانُ وجنوده ، وملك الملك وكنوده ، وجبَر الله الإسلام بأسرهم ، وقُتلوا وأُسروا بأسرهم ، فَمَن شاهَد القَتْلَى ، قال : ما هناك أسير . وَمَن عاين الأسرَى ، قال : ما هناك قتيل . ومُذِ استولَى الفرنج على ساحل الشام ، ما شُفِي للمسلمين كيوم حطّين غليلٌ ، فما أفْلَتَ مِن تلك الآلاف إلَّا آحاد ، وما نجا مِن أولئك الأعداء إلَّا أعداد ، وامتلأ المَلأُ بالأسرَى والقتلَى »[1].

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٤٢) : « جاءتِ العساكرُ المصرية وتوافتِ الجيوش المشرقيّة ، وسار السلطان قاصدًا بلاد الساحل ، وكان جملةُ مَن معه مِن المقاتلة اثني عشر ألفًا ، غيرَ المتطوِّعة ، فتسامعتِ الفرنج بقدومه ، فاجتمعوا كلُّهم وتصالحوا فيما بينهم ، وصالَح « قومس » طرابلس ، و« برنس » الكرك الفاجر ، وجاءُوا بحدّهم وحديدهم ، واستصحبوا معهم صليب الصلبوت ، يحمله منهم عبّاد الطاغوت ، وضُلّال الناسُوت ، في خلقٍ لا يَعلم عدّتهم إلا الله عز وجل ، يُقال : كانوا خمسين ألفًا ، وقيل : ثلاثًا وستين ألفًا ، وقد خوّفهم صاحبُ طرابلس من المسلمين ، فاعترض عليه البرنس صاحب الكرك ، فقال له : لا أشكُّ أنَّك تحبُّ المسلمين وتخوّفنا كثْرتَهم ، وسترى غِبَّ ما أقول لك . فتقدّموا نحو المسلمين ، وأقبل السلطان ففتح « طبريّة » ، وحاز البحيرة في حوْزته ، ومنع اللهُ الكفرة أنْ يصلوا منها إلى قَطْرة ، حتى صاروا في عطش عظيم ، فبرز السلطان إلى سطح الجبل الغربي مِن طبريّة ، عند قرية يُقال لها : « حطّين » ، التي

---

(١) « عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لأبي شامة صـ ١٣٥ – ١٣٦ – طبع : وزارة الثقافة السورية .

يُقال : إنّ فيها قبر شُعيب عليه الصلاة والسلام ، وجاء العدو المخذول ، وكان فيهم صاحب عَكَّا ، و« كفرنكا » ، وصاحب الناصرة ، وصاحب « صُور » ، وغير ذلك من جميع ملوكهم ، فتواجه الفريقان ، وتقابل الجيشان ، وأسْفَرَ وَجْهُ الإيمان ، واغْبَرَّ وأقْتَمَ وأظلم وجهُ الكفر والطغيان ، ودارت دائرة السَّوْءْ على عبدة الصُّلبان ، وذلك عشية يوم الجمعة ، فبات الناس على مَصافِّهم ، وأصبح صباح يوم السبت ، الذي كان يومًا عسيرًا على أهل الأحد[1] ، وذلك لخمس بَقينَ من ربيع الآخر ، فطلعتِ الشمس على وجوه الفرنج ، واشتدّ الحرُّ ، وقوي بهم العطش ، وكان تحت أقدام خيولهم حشيشٌ قد صار هشيمًا ، وكان ذلك عليهم مشئومًا ، فأمر السلطان النّفّاطةَ أنْ يرموه بالنِّفْط ، فرمَوْه ، فتأجج نارًا تحت سنابك خيولهم ، فاجتمع عليهم حَرُّ الشمس وحرُّ العطش ، وحرّ النار وحرّ السلاح ، وحرُّ رشْق النّبّال ، وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة ، فحملوا ، وكان النصر من الله عز وجلّ ، فمنحهم اللهُ أكتافهم ، فقُتل منهم ثلاثون ألفًا في ذلك اليوم ، وأُسِرَ ثلاثون ألفًا مِن شجعانهم وفرسانهم ، وكان في جملة مَن أُسِر جميعُ ملوكِهم ، سوىٰ « قومس » طرابلس ؛ فإنّه انهزم في أول المعركة ، واستلبهم السلطانُ صليبَهم الأعظم ، وهو الذي يزعمون أنه صُلب عليه المصلوب ، وقد غلّفوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة ، ولم يُسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله ، ودَمْغِ الباطل وأهله ، حتى ذُكِر أنَّ بعضَ الفلاحين رآهُ بعضهم يقود نيّفًا وثلاثين أسيرًا من الفرنج ، وقد ربطهم بطُنُبِ خيمةٍ ، وباعَ بعضُهم أسيرًا بنعْلٍ لِيَلْبَسَهَا في رِجلِهِ ، وجرَتْ أمورٌ لم يُسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين ، فللّهِ الحمد دائمًا كثيرًا ، طيّبًا مباركًا » .

---

(١) أي : النصارىٰ .

قال أبو شامة في « عيون الروضتين » (٢ / ١٣٦ - ١٣٩) : « وامتلأ الملأ بالأسرىٰ والقتلىٰ . قال العماد : وعبرتُ بها فألفيْتُهَا محلّ الاعتبار ، وشاهدتُ ما فَعَلَ أهلُ الإقبال بأهل الإدْبار ، فمن قُتِلَ حَصرَتِ الألسنة عن حصْره وعدِّه ، ومَن أُسر لم يَكْفِ أطْنَابُ الخِيَم لقيْدِه وشدِّه ، ولقد رأيتُ في الحبل الواحدِ ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفي بقعةٍ واحدة مائةً ومائتيْنِ يَحميهم حارس . قال القاضي بهاء الدين بن شدّاد : كان الواحدُ منهم العظيم يخلد إلى الأسْر خَوْفًا على نفسه ، ولقد حكىٰ لي مَن أثِقُ به أنه لقي بـ« حوران » شخصًا واحدًا ومعه طُنُبُ خيمةٍ ، فيه نَيِّفٌ وثلاثون أسيرًا يجرّهم وحده ، لِخُذلانٍ وقع عليهم .

وأمّا مقدّمو الداويّة والأسبتارية ، فإنَّ السلطان اختار قتْلهم فقُتِلوا كلُّهم ، وأمَّا « البرنس أرناط » صاحب الكرك ، فكان السلطان قد نذر دَمَه إنْ ظفِر به ، وسبب ذلك : أنه كان عبرَ به بـ« الشوبك » قَفَلٌ مِن الدّيار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلحَ الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفافَ بالنبي ﷺ ، وقال : قولوا لمحمّد : لِمَ لمْ يُخلّصكم ؟! وبَلغ ذلك السلطانَ رحمه الله ، فحمَلَه الدينُ والحميّةُ على أنه نذَر إنْ ظفر به قتلَه ، فلمّا فتح الله عليه بالنصر والظفر ، جلس في دِهْليز الخيمة ؛ فإنها لم تكنْ نُصبتْ بعد ، والناس يتقرّبون إليه بالأسارىٰ وبمَن وجدوه مِن المقدّمين ، ونُصبتِ الخيمة وجلس فرحًا مسرورًا ، شاكرًا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جفرىٰ وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك شربةً مِن حُلابٍ مبردٍ بثلجٍ ، فشرب منها ، وكان على أشدّ حالٍ من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس ، فقال السلطان للترجمان : قُل للملِك : أنت الذي سُقيتَه وإلَّا أنا ما سقيتُه ، وكان على جميل عادة العرب وكريمِ أخلاقهم أنَّ الأسير إذا أكل أو شرب مِن

مال مَن أسَرَه أَمِن ، فقصد السلطان بذلك : الجرْي على مكارم الأخلاق[١] ، وأَقْعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس ، وواقفه على ما قال ، ثم قال له : ها أنا أنتصر لمحمد ﷺ[٢] . ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فقام إليه وسلّ المجناةَ وضربه بها ، فحلّ كَتِفه ، وتمّم عليه مَن حضر ، ثم رُمي على باب الخيمة » .

وورد إلى بغداد كتابٌ مِن بعض مَن حضر الوقعة ، يقول فيه : « بلغ ثمنُ الأسير بدمشق ثلاثة دنانير ، ويباع الرجلُ وزوجته وأولاده في النداء بيْعةً واحدةً ، ولقد بيعَ بحضوري رجلٌ وامرأته وخمسة أولادٍ لهما – ثلاثة بنين وابنتان – بثمانين دينارًا ، وأُخذ صليب الصلبوت ، وعُلِّق على قنطاريّة منكّسًا ، ودُخل به إلى دمشق ، وكلّ يوم نرىٰ من رءوس الفرنج مثلَ البطيخ ، وأُخذ من البقر والغنم والخيل والبغال والحمير ، ما لم يجئْ مَن يشتريه ؛ من كثرة السَّبْي والغنائم . قال : وبلغني أنّ بعض فقراءِ العسْكر باعَ أسيرًا بزربول[٣] ، فقيل له في ذلك : فقال : أردتُ أنْ يُقال : بلَغَ مِن كثرتهم وهوانهم أنْ بِيع واحدٌ منهم بزرْبول » .

لله دَرُّكَ يا صلاح !

---

(١) والشرع خلاف ذلك ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ما كان لِنبيٍّ أنْ يكونَ لهُ أسْرَىٰ حتَّى يُثْخِنَ في الأرضِ تُريدونَ عَرَضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] ، فإنّ مَن أطلقهم كانوا أشدّ الناس عليه بعد ذلك في حصاره لعكّا .

(٢) وفي البداية والنهاية ١٢ / : « نعم أنا أنوبُ عن رسول الله ﷺ في الانتصار لأُمَّته » .

(٣) الزربول : الحذاء ، وهي لا تزال تُطلق على ما يُلبَس في القدم بين البدو في سورية .

حَطَطْتَ على حطِّينَ قَدْرَ مُلوكِهِمْ ... ولمْ تُبقِ مِن أجناسِ كُفرهمُ جِنْسَا
سَبَايا بلاد اللهِ مملوءة بِهَا ... وقدْ شُريتْ بَخْسًا وقد عُرضَتْ نَخْسَا
يُطافُ بِهَا الأسواقَ لا راغبٌ لَهَا ... لِكثرتِهَا كمْ كثرةٍ تُوجِبُ الوَكْسَا
شَكَا يَبَسًا رَأْسُ البرنسِ الذي بِهِ ... تندّىٰ حُسامٌ حاسِمٌ ذلك اليبْسَا

وقال الجليّاني :

يا وقعةَ التَّلِّ ما أبقيتِ مِن عَجَبٍ ... جحافلٌ لمْ يَفُتْ مِن جمْعِها بَشَرُ
ويا ضُحىٰ السَّبتِ ما للقومِ قد سَبَتُوا ... تهوّدُوا أمْ بكأسِ الطعنِ قدْ سَكِرُوا
حطّوا بحطّين مُلّاكًا فيَا عجبًا ... في ساعةٍ زالَ ذاكَ المُلْك والقدَرُ
أهوىٰ إليهمْ صلاحُ الدينِ مُفترِسًا ... وهوَ الغَضَنْفَرُ أعدىٰ ظُفْرَهُ الظفرُ
أملىٰ عليهمْ فصاروا وسْطَ كِفّتِهِ ... كَسِرْبِ طيرٍ حَوَاهَا القانِصُ الذَّكرُ
وأنجزَ اللهُ للسلطانِ موْعِدَهُ ... ونذْرَهُ في كَفُورٍ دينُهُ البَطرُ
وعايَنَ الملكُ الأبرنسَ في دمِهِ ... فماتَ حيًّا وحيي وهو يعتذر
ما لي أرىٰ ملك الإفرنجِ في قفصٍ ... أينَ القواضِبُ والعسّالةُ[1] السُّمُرُ
والأسبتارُ إلى الدَّيْويّةِ الْتأمُوا ... كأنَّهم سدُّ يأجوجٍ إذا اشْتجرُوا
يتلُوهُمُ صلبوتٌ سِيق منتكِسًا ... وحوْلَهُ كلُّ قسِّيسٍ لهُ دبرُ

وقال أبو الحسن الساعاتي لصلاح الدين :

أدْرتَ على الفرنجِ وقدْ تلاقَتْ ... جموعُهُمُ عليكَ رَحًى طحُونا
ففي بَيْسَانَ ذَاقُوا منْكَ بُؤْسًا ... وفي صفدٍ أتوْكَ مُصَفَّدِينَا
لقدْ جرَّدتَ عَزْمًا ناصِرِيًّا ... يحدِّث عنْ سنَاهُ طُور سينا
فكنتَ كَيُوسفَ الصِّديقِ حقًّا ... لهُ هَوَتِ الكواكبُ سَاجدينا
لقدْ أتعبتَ مَنْ طلبَ المعالي ... وحاولَ أنْ يَسوسَ المُسْلمينا

(١) رمح عسال وعسول : لَدِن مضطرب .

وإنْ تكُ آخِـرًا فخـلاكَ ذمٌّ فـإنَّ محمـدًا في الآخِرينـا

« وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان يهنِّئُه بهذه الكسرة ؛ فإنّه كان غائبًا بدمشق ، مِن جملة الكِتاب : لِيَهْنِ المولىٰ أنّ الله قد أقام به الدين القيّم ، وأنه كما قيل : أصبحتَ مولاي ومولىٰ كلِّ مسلم ، وأنه قد أسبغ عليه النعمتيْن الباطنة والظاهرة ، وأورثه المُلْكَين : مُلْك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة ، والرؤوسُ إلى الآن لم تُرفع من سجودها ، والدموعُ لم تُمسح مِن خدودها ، وكلّما فكّر الخادم في أنّ البِيَع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يُقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة ، يُقال فيه : إنه هو الواحد ، جدّد لله شكرًا ، تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جفنهِ ، وجـزىٰ يوسفَ خيرًا على إخراجه الحقَّ من سجنه ، والمماليك ينتظرون أمْر المولىٰ ، فكلُّ مَن أراد أنْ يدخل الحمّام بدمشق ، قد عوَّل على دخول حمّام طبرية .

تلكَ المكارمُ لا قِعْبانَ مِن لَبَنٍ وذلكَ الفتحُ لا سيفَ بنِ ذي يزَنِ

وللألسنة بعدُ في هذا الفتح سبْحٌ طويل ، وقولٌ جليل » .

ولقد فتح صلاح الدين بعد كسرة حطين ، وقبل فتح بيت المقدس ، أكثرَ من خمسين بلدة ومدينة ، ففتح طبرية ثاني يوم الكسرة . « قال القاضي بهاء الدين بن شداد : ثم رحل السلطان طالبًا عكّا فقاتلها بكرةَ الخميس مستهلّ جمادى الأول ، فأخذها واستنقذ مَن كان بها من الأُسارىٰ ، وكانوا زهَاءَ أربعة آلاف نفس ، واستولىٰ على ما فيها من الذخائر والأموال ، والتجاير والبضائع ؛ فإنها كانت مظنّة التجار ، وتفرّقت العساكر في بلاد الساحـل ، يأخـذون الحصون والقِلاع والأماكن المنيعة ، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية ، وصفورية والناصرة ، وكان ذلك لخُلوّ الرجال بالقتل والأسر .

وقال العماد : خرج أهل البلد - يعني عكّا - يطلبون الأمان ، فأمّنهم على أنفسهم فقط ، وفتحوا البلد يوم الجمعة ، فجئْنا إلى كنيستها العظمىٰ ، فرتّب بها المنبر والقبلة ، وهي أول جمعة أُقيمتْ بالساحل بعد يوم الفتح[١] ، وفتح العادل حصن « مجدل يابا » ، ومدينة « يافَا » عَنوة . وفُتحت « الفولة » ، وهي قلعة للداويّة حصينة ، وفيها ذخائرهم وأموالهم ، وفتحت « دبوريّة » ، و« جنين » و« زرعين » و« الطور » و« اللّجون » و« بيْسان » و« القيمون » و« مالعكا » و« طبرية » من الولايات ، و« الزيب » و « معليا » و « البعنة » و « إسكندرونة » و « منواث » و « أرسوف » ، واستولى على تلك الشموس والأقمار ، الكُسوف والخُسوف ، وفتح المسلمون « سبسطية » ، وفيها مشهد زكريا عليه السلام ، وقد اتخذه « الأقسا » كنيسةً ، وقد حجبوه وحلّوْه ، ففتح للمسلمين أبوابه ، وأظهر للمصلّين محرابه .

وأرسل السلطان إلى « تبنين » ابنَ أخيه تقيَّ الدين فضايقها ، فراسلوا السلطان وسألوه الأمان ، واستمهلوا خمسة أيام ، فأُمْهِلوا ، وأَطلقوا أُساراىٰ المسلمين ، وهذا دأْبه في كلّ بلدٍ يفتحه ، أنه يبدأ بالأُسارى فيفكُّ قيودَها ، ويُعيد بعد عدَمها وجودَها ، فخلّص - تلك السنةَ - من الأسر أكثرَ مِن عشرين ألفِ أسير ، ووقع في أسْره من الكفار مائةُ ألف ، ثم تسلّم السلطان بعد « تبنين » : « صيدا » ، و« صرفند » ، و« بيروت » و« جبيل » ، وكان صاحب جُبيل في الأسر فسلّمها وسَلِم ، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل ونابلس مسلمين ، فذاقوا العزَّة بعد الذِّلة ، ورفع المسلمون رءوسهم ، وعرَفوا نفوسهم ، وكان كلّ مَن استأمن من الكفار يمضي إلى

---

(١) بعد غياب اثنتين وسبعين سنة .

صُور مَحْمِيَّ الذّمار .

ونزل السلطان على عسقلان فحصرها ، وتردّدتْ مراسلاتٌ بين أهلها والملك ، ثم سلّموها يوم السبت سلْخ جمادى الآخرة ، وخرجوا بنسائهم وأموالهم ، وكان السلطان أخذ في طريقه إليها « الرملة » و« تُبنين » و« بيت لحم » و« الخليل » ، وأقام بها حتى تسلّم حصون : الداوية ، غزة ، والنطرون ، وبيت جبريل ، ولدّ ، والداروم ، ولم يبق في الساحل من جُبيل إلى أوائل حدود مصر سوىٰ القدس وصور . وكان السلطان رحمه الله ، قد استدعى بالأساطيل من مصر ، فجاءت مع مقدّمها الحاجب لؤلؤ فطفِق يكسر ويكسب ، ويسلّ ويسلب ، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه »[١].

فتْحُ بيْتِ المقدس في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة هجرية :

أرسل شابٌّ من أهل دمشق – كان مأسورًا ببيت المقدس – رقعة إلى صلاح الدين ، فيها هذه الأبيات :

يَـأَيُّـهَـا المـلكُ الذي ... لمعـالمِ الصُّلبـانِ نَكَّسْ
جَـاءَتْ إليكَ ظُلامـةٌ ... تسعىٰ مِنَ البيت المقدَّسْ
كلُّ المسـاجدِ طُهِّـرَتْ ... وأنا علىٰ شرفي مُنجَّسْ

« قال القاضي شدّاد : لما تسلّم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس ، شمّر عن ساقِ الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرّقة ، فنزل عليه يوم الأحد ، خامس عشر رجب ، وكان مشحونًا بالمقاتِلة مِن الخيّالة والرّجّالة ، ولقد تجاوز أهل الخبرة عِدّة مَن كان

(١) عيون الروضتين ٢ / ١٤٨ – ١٥٢ .

فيه من المقاتِلة بما يزيد على ستين ألفًا ، ما عدا النسوان والصبيان .

قال العماد : وكان به مِن مقدّمي الإفرنج « باليان بن بارزان » والبطرك الأعظم ، والذين أغفلتهم حياطة الفرسان الداويّة والأسبتاريّة ، والبارونية ، وقد حشروا وحشدوا ، فكانوا ستين ألفِ مقاتلٍ من فارس وراجل ، من أتباع الشيطان وعبَدة الصُّلبان ، فأقام السلطان بمنزلِهِ – غربيِّ القدس – خمسة أيام ، وسلّم إلى كلّ طائفةٍ من الجيش ناحية من السّور وأبراجه ، ثم تحوّل السلطان إلى ناحية الشام ؛ لأنه رآها أوسع للمجال ، والجلاد والنّزال ، وقاتل الفرنج دون البلد قتالًا هَائِلًا ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة دينهم وقمامتهم ، واستُشهد في الحصار بعض أمراء المسلمين ، فحنق عند ذلك كثيرٌ من الأمراء والصالحين ، واجتهدوا في القتال ونصْب المجانيق والعرادات على البلد ، وغنّتِ السيوف والرماح الخطيّات ، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران ، وفوق قُبّة الصخرة صليب كبير ، فزاد ذلك أهل الإيمان حَنقًا وشدَّةً للتشمير ، وكان ذلك يومًا عسيرًا على الكافرين غيرَ يسير ، فبادر السلطان إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور ، فنقبها وعلقها ، وحشاها وأحرقها ، فسقط ذلك الجانب ، وخرَّ البرج برُمَّته ، فإذا هو واجِبٌ ، فلما شاهَد الفرنجُ ذلك الحادث الفظيع ، والخطْب المؤلم الوجيع ، قصد أكابرُهم السلطانَ ، وطلب صاحبها باليان الأمانَ ، ليحضر عند السلطان فأمّنه ، فلمّا حضر ترقَّق للسلطان ، وذلّ ذُلًّا عظيمًا ، وتشفّع إليه بكلّ ما أمكنه ، فَلَمْ يُجِبْه إلى الأمان لهم ، وكانوا من قَبْلُ يقولون : كلّ واحدٍ منا بعشرين ، وكلُّ عشرة بمائتين ، ودون قمامة تقوم القيامة . فأبَى السلطان أن يجيبهم إلى الأمان ، وقال : ما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدَى وتسعين سنة ، فإنّهم حينئذ استباحوا القتل ، فأنا أُفني رجالهم قتلًا ، وأحوي نساءَهم سَبْيًا . فقالوا :

إذا أيسْنا من أمانكم ، قاتلْنا قتالَ الدم ، فلا يُجرَح واحدٌ منا حتى يجرح عَشرة ، وأنّا نحرّق الدور ونخرّب القبة ، ونقلع الصخرة ، ونُعمي عيْن سلوان[١] ، ونخسف المصانع[٢] ، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ، فنبدأ بقتلهم ، ثم نُهلك الأموال ، ونُعدم النساء والأطفال ، فلا يحصل لكم سبي ولا مال . فشاوَر السلطانُ أصحابه ، فقالوا : الصواب أنْ نُبيعهم نفوسهم ، ونُعمِّم بِصَغَار الجزية رءوسَهم ، ونُدخِل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم . واستقرّ بعد مراودات ومعاوداتٍ عن كلّ رجلٍ عشرةُ دنانير ، وعن كلّ امرأة خمسة دنانير ، وعن كلّ صغير أو صغيرة ديناران ، ومَن عجز بعد أربعين يومًا عمَّا لَزِمه ، أو امتنع منه ، وما سَلّمَهُ ، ضُرب عليه الرِّقُ . ودخل ابن بارزان والبطرق ومقدّمو الداويّة والأسبتار في هذا الضَّمان ، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء ، وسلّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين مِن رجب ، وكان في القدس أكثر من مائة ألف إنسان ، من رجال ونساء وصبيان ، وأُغلقت دونهم الأبواب ، ورُتّب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النوّاب ، ووكّل بكلّ باب أمير ومقدّم كبير ، وحصّل لبيت المال ما يقارب مائتي ألف دينار ، وبقي مَن بقي تحت رِقّ وإسار »[٣].

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٤٥ - ٣٤٦) : « كان جملة مَنْ أُسر بهذا الشرط ستةَ عشرَ ألفِ أسيرٍ ، من رجال ونساء وولْدان » .

« ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ ، ولكن نظّفوا المسجد

---

(١) وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء بيت المقدس . وكانت في ربض مدينة القدس .
(٢) المصانع : الأبنية . في « لسان العرب » .
(٣) عيون الروضتين ٢ / ١٥٣ - ١٥٥ .

الأقصىٰ مما كان فيه مِن الصلبان والرُّهبان والخنازير ، وخُرّبت دُور الداوية ، وكانوا قد بَنَوْهَا غرب المحراب الكبير ، واتخذوا المحراب مَشْتًى - لعنهم الله - فنُظِّف ذلك كلّه ، وأُعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية ، وغُسلت الصخرة بالماء الطاهر ، وأعيد غسلها بماء الوَرْد والمسك الفاخر ، وأُبرزت للناظرين ، وقد كانت مستورة مخبوءةً عن الزائرين ، ووضع الصَّليب عن قُبَّتها ، وعادت إلى حُرْمتها . ولمّا تطهّر بيت المقدس ممّا كان فيه من الصلبان ، والنواقيس والرهبان والقساقس ، ودخله أهل الإيمان ، ونُودي بالأذان ، وقرئ القرآن ، ووُحِّد الرحمان - كان أول جمعة أقيمت في الرابع من شعبان ، بعد يوم الفتح بثمان ، فنصب المنبر[1] إلى جانب المحراب ، وبُسطت البُسُط ، وعُلّقت القناديل ، وتُلي التنزيل ، وجاء الحقُّ وبطلت الأباطيل ، وصُفّت السجادات وكثرت السَّجدات ، وتنوّعتِ العبادات ، وارتفعتِ الدعوات ، ونزلتِ البركات ، وانجلتِ الكُربات ، وأُقيمت الصلوات ، وأذنَّ المؤذّنون ، وخرس القسّيسون ، وزال البوس ، وطابت النفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس ، وعُبد الله الأحد الصمد الذي ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص : ٣ - ٤] ، وكبّره الراكع والساجد ، والقائم والقاعد ، وامتلأ الجامع ، وسالت لِرقّة القلب المدامع ، ولمّا أذّن المؤذنون للصلاة قبل الزوال ، كادتِ القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال »[2].

وجلس الفقهاء في مجالس الرهبان ، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله

---

(١) الذي أعده نور الدين محمود زنكي ، فقد كان يرجو أنْ تُفتح القدس على يديْه ، فعاجله الموت ، عامَلَه الله بحسن نيّته .

(٢) تحت الطبع كتاب لي في فضل القدس وشرفها ، وكتاب آخر في حوادث رجب ، وفيه نصّ خطبة القاضي محيي الدين بن الزكي ، التي قالها في ذلك اليوم .

المقدس أبواب الجِنان ، وتزاحم الخارجون من البلد – من الفرنج والنصارىٰ – في دخول أبواب النيران ، وصَلّى محارب الدين في المحراب ، ورفع الملائكة ما كان تكاثَف بأنفاس الكفر من الحجاب ، وغُسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض كغزارة الأمواه ، وقُبّلت بالشفاه ، وبُوشرت بالأفواه ، وطُهّرت بأهل العلم والحلم مِن أدناس الجهل والسِّفاه :

جندُ السماءِ لهذا المَلْكِ أعوانُ ... مَن شكَّ فيهِ فهذا الفتحُ بُرْهَانُ
هذي الفتوحُ فتوحُ الأنبياءِ وَمَا ... لها سِوىٰ الشكْر بالأفعالِ أثمانُ
تسعونَ عامًا بلاد اللهِ تصرخُ والْـ ... إِسْـلامُ نُصّـاره صُمٌّ وعُميانُ
فالآنَ لبَّىٰ صلاحُ الدينِ دعْوتَهُمْ ... بأمْرِ مَنْ هـو للمعـوانِ مِعْوانُ
في نصفِ شهرٍ غدا للشركِ مُصْطَلِمًا ... فطُهِّـرَتْ منهُ أقطـارٌ وبلـدانُ

وقال الجليّاني عن صلاح الدين :

فلوْ رآكَ وقد حُزْتَ العلا عمرُ ... في قُلّةِ التَّلِّ قَضَّى كُنْه عَبْرتِهِ
ولوْ رآكَ وأهلُ القدسِ في وَلَهٍ ... أبو عبيدةَ فـدّىٰ مِن مَسـرَّتِهِ
غداةَ جَزُّوا النواصي في قمامتِهِ ... وأعْوَلُوا بالتّباكي حوْلَ صخْرتِهِ
دارتْ بكَ المِلَّةُ الحسْنَىٰ فَنَحنُ علىٰ ... عَهْدِ الصحابةِ في استمرارِ مرّتِهِ

فُتوحاتٌ بعد فتْح القدس :

كان الجهاد قد غلب على السلطان ، فلم يستقرّ في القدس إلا قليلا ، ثم بدأ جولةً أُخرىٰ من الفتوحات ، فأتمّ فتح صيدا وبيروت ، وجبلة ، واللاذقية ، وحصن صهيون ، وحصن بغراس ، ورجع بعدها إلى صفد والكرك ففتحها ، ثم قلعة الشقيف . وفي ردة فعْلٍ صليبيةٍ شديدة حاولوا استرجاع عكا ، فحاصروها من جهة البحر ، فأسرع السلطان إليها ووقف بإزائهم ، فكانت الإمدادات تأتي الصليبيين من جهة البحر بشكلٍ دائم ،

فاضطُرّ السلطان والمسلمون لمصابرتهم ستةً وثلاثين شهرًا (رجب ٥٨٥ – شعبان ٥٨٨) ، وفي هذا الحصار ظهرت شخصية صلاح الدين العظيمة ، ثلاث سنوات وهو في حالة قتالٍ وتأهُّب واستعداد .

قال ابن شداد : « كان السلطان يُعاني هذه الأمور بنفسه ، ويصافحها بذاته ، لا يتخلّف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شِدّة حرصه ووفور همّته كالوالدة الثَّكْلَى . ولقد أخبرني بعض أطبّائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلّا شيئًا يسيرًا لفرْطِ اهتمامه »[١].

فانظرْ إلى الهمّة التي لم يشغلها عن الغزاة شيءٌ .

ولله دَرُّ صلاح الدين وهو في مصافِّه الأعظم على عكا ، وهو يأمر « الجاويش أنْ ينادِيَ في الناس : « يا للإسلام ، وعساكر موحّدين » ، فركب الناس ، وقد باعوا أنفسهم بالجنة »[٢].

ويُورد أبو شامة من عُلوّ همّته : « قال القاضي : وكان لا بد له من أن يطوف حوْل العدو كلَّ يوم مرةً أو مرتين ، إذا كنا قريبًا منهم ، وكان إذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفَّيْن ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، يُرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم ، والوقوف في مواضع يراها ، وكان يُشارف العدوَّ ويجاوره ، ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفّين ، وذلك أني قلتُ له : قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، وما نُقِل أنه سمع بين الصفّين ، فإنْ رأى المولى أنْ يُؤْثَر عنه ذلك ، كان حسنًا ، فأذِنَ في ذلك ، فأحضر جزءًا هناك من له بسماع ، فقُرئ عليه ، ونحن على ظهور الدّوابّ بين الصفَّيْن ، يمشي تارة ويقف

---

(١) « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » للقاضي بهاء الدين بن شداد صـ ١٠٧ .

(٢) النوادر السلطانية صـ ١٠٩ .

أُخرىٰ ، وما رأيتُهُ استكثر العدو أصلًا ، ولا استعظم أمْرهم قطّ ، وكان مع ذلك يذكر بين يديْه الأقسام كلها في حال الفكر والتدبير ، ويُرتِّب على كل قسمٍ مقتضاه ، من غير حِدَّةٍ ولا غضب يعتريه ، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا ، حتى القلْب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعَلَم ، وهو ثابت القدَم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ، ويخجّلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى عكر المسلمون على العدو في ذلك اليوم ، وقُتل منهم زهَاء سبعة آلاف ، ما بين راجل وفارس »[١].

قال ابن شداد : « وكان رحمه الله من عظماء الشجعان ، قوي النفس شديد البأس ، لا يَهُوله أمر ، ولقد وصل في ليلة واحدة من الإفرنج نيِّف وسبعون مركبًا على عكا ، وأنا أَعُدّها مِن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلَّا قوة نفس » . وخلال هذا الحصار الطويل جرت وقعاتٌ كبيرة بينه وبين الفرنجة ، وانتصر فيها ، ولكنّ الإمدادات كانت تتوالى مِن أوربّا عن طريق البحر ، وصابَر الفريقان مصابرة عجيبة ، وكان القتال يتمّ يوميًّا أحيانًا وفي البرّ والبحر ، وفي هذا الحصار استنجد صلاح الدين بملك المغرب أمير دولة الموحِّدين فرفض المساعدة ؛ لأنه لم يذكر في رسالته : « أمير المؤمنين » !! وفي نهاية هذه المعاناة مرض السلطان ، واضطُرّ للصلح مع الإفرنج ، وأخذوا عكا مرة ثانية ، وحاولوا أخْذ يافا ولكنهم لم يفلحوا ، وعاد السلطان إلى القدس يرتّب أمورها ، ويصلح مِن سورها ، « وكان رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته . من الأمكنة البعيدة ، فيقتدي به العسكر »[٢].

---

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١٢ / ٧٤ .

شَغَفُهُ بالجهـاد :

« قال القاضي ابن شداد : كان رحمه الله شديدَ المواظبة على الجهاد ، عظيمَ الاهتمام به ، ولو حلف حالِف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارًا ولا درهمًا إلَّا في الجهاد أو في الإرفاد ، لَصَدَقَ وبرّ في يمينه ، ولقد كان الجهاد وحبُّه والشغَفُ به قد استولى على قلبه ، وسائِرِ جوانحه استيلاءً عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلَّا فيه ، ولا نظر إلَّا آلَتَهُ ، ولا اهتمام إلَّا برجاله ، ولا ميل إلَّا إلى مَن يذكره ويحثُّ عليه ، ولقد هجر في محبَّة الجهادِ في سبيل الله أهلَه وأولادَه ووطنه ، وسكنَه وسائرَ مَلاذّه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظلّ خيمة ، تهبّ بها الرياح يمنةً ويسرةً ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلةٍ ريّحة على مرج عكا ، فلو لم يكن في المرج ، وإلَّا قتلتْهُ ، ولم يزده ذلك إلَّا رغبةً ومصابرة واهتمامًا ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرّب إليه يحثُّه على الجهاد ، أو يذكر له شيئًا من أخبار الجهادِ ، ولقد أُلِّفَ له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممّن جمع له فيه كتابًا ، ولأَحكينَّ عنه ما سمعتُ منه في ذلك : في سنة أربع وثمانين – لمّا ودّع أخاه وعسْكرَ مصر بعسقلان – سرنا على الساحل طالبينَ عكّا ، وكان الزمان شتاءً عظيمًا ، والبحر هائجًا هيجانًا عظيمًا ، وموجُه كالجبال كما قال الله ، وكنت حديثَ عهدٍ برؤية البحر ، فعظُم أمْرُ البحر عندي ، حتى خُيِّل لي أنني لو قال لي قادر : لوْ جُزْتَ في البحر ميْلًا واحدًا ملّكتُك الدنيا ، لَمَا كنت أفعل ، واستخففتُ رأْيَ من يركب البحر رجاءَ كسْب دينار أو درهم ، هذا كلّه خطر لي ، لِعِظَمِ الهوْل الذي شاهدتُه من حركة البحر وتموُّجِهِ ، فبينا أنا في ذلك ، إذ التفتَ إليّ ، وقال : في نفسي أنّه متى يسّر اللهُ تعالى فتْح بقية الساحل ، قسّمتُ البلاد ، وأوصيتُ وودّعتُ ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائره أَتبعهم فيها ، حتى لا أُبقي على وجه الأرض مَن يكفر بالله ، أو أموت . قال :

فعظم وقْع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ما كان يَخطر لي ، وقلتُ له : ليس في الأرض أشجع نفسًا من المولى ، ولا أقوىٰ نيّة منه في نصرة دين الله ، وحكيتُ له ما خطر لي ، ثم قلتُ له : ما هذه إلا نيّة جميلة ، ولكنّ المولى يُسيّر في البحر العساكر وهو سور الإسلام ، ولا ينبغي أنْ يخاطر بنفسه . فقال : أنا أستفتيك ، ما أشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله . فقال : « غاية ما في الباب أنْ أموت أشرفَ الميتات » . قال : فانظرْ إلى هذه الطويّة ، ما أطهرها ! وإلى هذه النفس ، ما أشجعها وأجسرها ! اللهمّ إنّك تعلم أنّه بذل جهده في نصرة دينك رجاءَ رحمتك ، فارحمْه »[١].

ويكتب للخليفة العباسي : « وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله ، والكفُّ عن مظالم عباد الله ، والطاعة للخليفة : هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ، واللهُ العالمُ أنَّه لا يقاتل لعيْشٍ أَلْيَنَ من عيشٍ ولا لِغَضبٍ يملأ العيان »[٢]. وقد ذكرنا كيف أنه كان ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس ، « ولو رأيتَه وهو يحمل حجرًا في حِجْره ، لعلمت أنّ له قلبًا قد حمل جبلًا في فكْره »[٣]. وعندما رجع إلى دمشق وجد وكيل الخزانة قد بنىٰ له دارًا ، فغضب عليه ، وقال : إنّا لم نُخلَق للمقام في دمشق ولا بغيرها ، وإنما خُلِقنا للجهاد .

كتب إليه الأنكتار الملعون صاحب عكا : « إنّ المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخُربتِ البلاد ، وخرجتْ من يد الفريقَيْن بالكليَّة ، وقد تلفتِ

---

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٠٩ - ٣١١ .
(٢) الروضتين ٢ / ٤٨ .
(٣) الروضتين ٢ / ١٩٦ .

الأموال والأرواح من الطائفتَيْن ، وقد أخذ هذا الأمر حقّه ، وليس هناك حديث سوىٰ القدس والصليب والبلاد ، والقدس فمُتعبّدنا ما ننزل عنه ، ولو لم يبقَ منَّا واحدٌ ، وأمّا البلاد فيُعاد إلينا منها ما هو قاطِع الأردن ، وأمّا الصليب فهو خشبة ، لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به السلطان علينا ، ونصْطَلِح ونستريح من هذا العَناء الدائم » . ووقف السلطان رحمة الله عليه على هذه الرسالة ، واستدعى أرباب المشُورة من دولته ، واستشارهم في جواب ذلك ، والذي رآه السلطان رحمه الله في جواب ذلك أنْ قال : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم ممّا هو عندكم ؛ فإنه مَسْرىٰ نبيِّنا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصوّر أنْ ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفُّظ بذلك بين المسلمين ، وأمّا البلاد فهي لنا أيضًا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئًا عليها ، لضعف مَن كان بها مِن المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حَجَر منها ما دام الحرب قائمًا ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأمّا الصليب فهلاكُه عندنا قربَةٌ عظيمة ، ولا يجوز لنا أنْ نفرّط فيها ، إلا لمصلحةٍ راجعة إلى الإسلام ، هي أوْفىٰ منها »[1].

وكلمات صلاح .. يوسف أحلامنا ، نهديها للأقزام الذين سقطوا في الوَحْل :

بيروتُ في اليمّ ماتَتْ قُدسُنَا انتحرتْ ... ونحنُ في العارِ نسقي وحْلَنا طِينا
أيُّ الحكايا ستُروىٰ عارُنا جَلَلٌ ... نحنُ الهوانُ وذلُّ القُدْسِ يَكْفينا
القدسُ في القيْدِ تَبكي مِن فوارِسِهَا ... دمعُ المنـابرِ يشكُـو للمُصلِّينَا
حُكَّامُنا ضيّعونا حينما فَسَقُوا ... باعُوا المآذنَ والقرآنَ والدِّينا

(١) النوادر السلطانية صـ ١٩٤ .

أعداؤُنَا مَن أضاعوا السَّيفَ مِن يَدِنَا ... وأوْدَعونا سُجونَ اللَّيلِ تطوينا
أقزامُنَا مَن توارىٰ صوتُهم فزعًا ... والأرضُ تُسْبَىٰ وبيروتٌ تُنادينا
قُمْ مِن ترابِكَ يا ابنَ العاص في دَمِنا ... ثأْرٌ طويلٌ لهيبُ العار يكْوينا
قُمْ يا بلالُ وأذِّنْ صَمْتُنَا عَدَمٌ ... كلُّ الذي كانَ طُهرًا لم يَعُدْ فينا
هَلْ مِنْ صلاحٍ يُعيدُ السيفَ في يَدِنَا ... أو تبْتُروها فقدْ شُلَّتْ أَيادينا
هَلْ مِنْ صلاحٍ يُداوي جرْحَ أُمَّتِهِ ... ويُطلِعُ الصبحَ نارًا مِنْ لياليِنا
هَلْ مِن صَلاحٍ لِشَعْبٍ هدّهُ أَمَلٌ ... ما زالَ رَغْمَ عنادِ الجرْحِ يَشفينا
جرحي عنيدٌ وجرحي أنتَ يا وطني ... جئْنا نُداويك تأبَىٰ أنْ تدَاوينا
إنّي أرىٰ القدْسَ في عينَيْكَ ساجِدةً ... تبكي عليْكَ وأنتَ الآنَ تَبكينا
ما زالَ في العَيْنِ طَيْفُ القُدسِ يَجْمَعُنَا ... لا الحلمُ ماتَ ولا الأحزان تُنسينا

صبْرُه واحتسابُه في الجهاد :

يقول القاضي ابنُ شدّاد : « لقد رأيتُه رحمه الله بمرج عكّا ، وهو على غايةٍ مِن مرضٍ اعتراه ، بسبب كثْرة دماميل ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيْه ؛ بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنّما يكون مُتّكِئًا على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع مِن مدّ الطعام بين يديْه لعجْزه عن الجلوس ، وكان يأمر أنْ يُفَرَّق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبًا من العدو ، وقد رتّب الناسَ ميمنةً وميسرةً وقلبًا؛تعبيةً للقتال ، وكان مع ذلك كلِّه ، يركب من بكْرةِ النهار إلى صلاةِ الظهر يطوف على الأطلاب[1]، ومن العصر إلى صلاة المغرب ، وهو صابرٌ على شدة الألم وقوّة ضربان

(١) جمع طلب ، وهو لفظٌ فارسي ، معناه : الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويُطلَق كذلك على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام ، أيّامَ صلاح الدين .

الدّمامل ، وأنا أتعجّب من ذلك ، فيقول : إذا ركبتُ يزول عني ألمُها حتى أنزل ، وهذه عناية ربّانيّة .

ولقد مَرِض - رحمه الله - ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن « تلّ الحجل » بسبب مرضه ، فبلغ الإفرنجَ ذلك ، فخرجوا طمعًا في أنْ ينالوا شيئًا من المسلمين بسبب مرضه ، وهي نوْبة النهر ، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التلّ ، ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا ، فركِب رحمه الله على مَضَضٍ ، ورتّب العسْكر ، وجعل أولاده في القلب ، ونزل هو وراءَ القوم بطلبه ، وكلّما سار العدو يطلب رأس النهر ، سار هو يَستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو رحمه الله يسير ساعةً ثم ينزل يستريح ، ويُظَلِّل على رأسه بمِنْديلٍ من شدّة وقعْ الشمس ، ولا يَنصبُ له خيمة حتى لا يُري العدوَّ ضعفًا ، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قُبالتهم على تلٍّ مُطِلّ عليهم ، إلى أن دخل الليل ثم أمر العسكر أن تعود إلى مَحِلِّ المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخّر هو إلى قمّة الجبل ، وضُربت له خيمة لطيفة ، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرّضه ونُشاغله ، وهو ينام تارةً ويستيقظ أُخرىٰ ، حتى لاحَ الصباح ، ثم ضرب البُوق ، وركِب رحمه الله ، ورَكِبَتِ العساكر ، وفي ذلك اليوم قدّم أولادَه بين يديْه احتسابًا ، الملك الظاهر والمَلِك الظافر وجميع مَن حضره منهم ، ولم يزل يبعث مَن عنده ، حتى لم يبقَ عنده إلّا أنا والطبيب ، وعارِض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلامُ والبَيارق لا غير ، فيظن الرائي لها عن بُعد أنّ تحتها خَلْقًا كثيرًا ، وليس تحتها إلا واحد ، بخُلُقٍ عظيمٍ ، رحمه الله .

فانظرْ إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أيِّ غاية بلغ هذا الرجل ، اللهمّ إنّك ألهمْتَه الصبر والاحتساب ووفّقتَه له ، فلا تحرمْه ثوابَه ، يا أرحم الراحمين .

ولقد رأيتُه ليلةً على صفد ، وهو يحاصرها ، وقال : لا ننام الليلة حتى تُنصبَ لنا خمسةُ مجانيقَ . ورتّب لكلِّ منجنيق قومًا يتولَّوْن نصْبه ، والرسل تتواصل مُخبرةً بأنه نُصب من المنجنيق الفلاني كذا ، ومن الآخر كذا ، حتى أتى الصباحُ وقد فرَغ منها ، وكانت مِن أطول الليالي ، وأشدِّها بَرْدًا ومطرًا .

وكان رحمه الله شديدَ الشَّغَف والشَّفَقة بأولاده الصغار ، وهو صابرٌ على مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم عنه ، وكان صابرًا على مرِّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامَّة على غير ذلك ، احتسابًا لله تعالى . اللهمّ إنّه ترك ذلك كلَّه ابتغاءَ مرضاتك ، فارضَ عنه وارحمه »[1].

قال ابن شدّاد : « ولم يُخلّف السلطان أموالًا ولا أملاكًا ؛ لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، حتى إلى أعدائه ، ولم يُخلِّفْ في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين درهمًا ودينارًا واحدًا ، وكان مُتقلِّلًا في ملْبسه ومأكله ومركبه » .

مات صلاحُ الدين ، « وما مُكِّنوا أنْ يُدخلوا في تجهيزه ما قيمتُه حبةٌ واحدة إلَّا بالقَرْض ، حتى في ثمن التبن الذي يُلَتُّ به الطين » ، وعظُم بكاءُ الناس ، حتى إنّ العاقل يتخيّل أنَّ الدنيا كلها تصيح صوتًا واحدًا ، وغَشيَ الناسَ من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة .

قال القاضي ابن شدّاد عن يَوْم موت صلاح الدين : « كان يومًا لم يُصَبِ المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقِدَ الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلَّا الله ، وباللهِ لقد كنتُ أسمع من

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤ – ٢٧ .

بعض الناس أنّهم يتمنَّوْن فداءَ مَن يعزّ عليهم بنفوسهم ، وما سمعتُ هذا الحديث إلَّا على ضرب من التجوُّز والترخُّص إلا ذلك اليوم ؛ فإني علمتُ من نفسي ومن غيري أنّه لو قُبل « الفِدَاءُ » ، لَفُدِي بالنفس »[١].

قال ابن شداد : « وَذُكِرَ أنه دُفن معه سيفُه الذي كان معه في الجهاد ، وكان ذلك برأي القاضي الفاضل . قال : هذا يتوكَّأ عليه في الجنَّة »[٢].

فأينَ صلاح ... « واقدساهُ .. ولا صلاحَ لها » :

أينَ الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأْسِهِ ... ذُلًّا ومنها أُدرِكَتْ ثاراتُهُ
مَنْ في الجهادِ صفاحُهُ ما أُغمدَتْ ... بالنصرِ حتَّى أُغمِدَتْ صَفَحَاتُه
لَذَّ المتاعبَ في الجهادِ ولم تكنْ ... مُذْ عاشَ قطُّ لِذَاتِهِ لذّاتُهُ
مسعُودَةٌ غَدَواتُهُ محمودةٌ ... رَوْحاتُهُ مَيْمونةٌ ضحواتُهُ
في نُصْرةِ الإسلامِ يسْهَر دائبًا ... لِيطول في روْضِ الجنانِ سُباتُهُ[٣]
لا تحسبُوهُ ماتَ شخصٌ واحدٌ ... فمماتُ كلِّ العالَمين مماتُهُ
مَن لليتامىٰ والأراملِ راحِمٌ ... متعطِّفٌ مَفْضُوضَةٌ صَدَقاتُهُ
وكعادةِ البيتِ المقدَّسِ يَحْزَنُ الْـ ... ـبيْتُ الحرامُ عليهِ بلْ عَرَفَاتُهُ
بكتِ الصَّوَارِمُ والصواهِلُ إذْ خلتْ ... مِنْ سَلِّهَا ورُكُوبِها غَزَوَاتُهُ
والقدسُ طامحةٌ إليك عُيُونُهُ ... عَجِّلْ فقد طمحتْ إليه عِداتُهُ

المدنُ والحصونُ التي فتَحها صلاحُ الدينِ مِن ديار الفرنج :

لَممتْ طيوفُ الذكرياتِ بخاطري ... من الدارِ .. منْ أهلٍ .. مِنَ الزَّهَرَاتِ

---

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢) عيون الروضتين ٢ / ٢٩٠ .
(٣) أي راحته ، فلَا نوم في الجنة .

مِنَ الصدقِ موْصولًا مع الدهرِ لُؤْلؤًا ... حُلِيّ صلاحٍ أو حليّ كماةِ
نقيًا بأعطافِ الجهادِ مباركًا ... على السَّاحِ مِن نورٍ ومن نَفَحَاتِ
جمعتْ بها التاريخَ قَبْلَ جَفَافِهِ ... وَقَبْلَ ذبولِ العُودِ والغرساتِ
جمعتْ بها التاريخَ ساحًا ومنزِلًا ... وأزمنةً موصولةَ الحَلَقَاتِ
فواعجبًا للدّارِ كيفَ تقطَّعتْ ... حدودًا ومادتْ في أسًى وشَتَاتِ
أَمُرُّ بها ذكرىٰ فلا الدارُ دارُهَا ... ولا حُجُراتُ العِزِّ بالحُجُراتِ
فيا وقفةَ التاريخ يَسكبُ دمعَهُ ... يُودّع مِن ساحاتِهِ الخَضِراتِ
فيا قدسُ هلْ أبقيْتِ دمعًا لنائحٍ ... حَنَانَيْكِ مِن شوْقٍ ومِن عَبَراتِ

قال القاضي ابن شدّاد : « ذكْر المدنِ والحصون التي يسّر اللهُ فتْحها على يديه – رحمة الله عليه – من ديار الفرنج – خَذَلَهم الله – من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ستٍ وثمانين :

(١) طبريّة : على بحر الأردن ، بالسيف (٢) عكا : على البحر الكبير ، بالأمان (٣) حيْفا : على البحر ، بالأمان (٤) الناصرة : التي تنسب إليها النصارىٰ (٥) الرملة (٦) قيسارية : بالسيف (٧) أرسوف : بالأمان (٨) يافا : بالسيف (مدينتها) (٩) عسقلان : بالأمان (١٠) غزّة : بالأمان (١١) الداروم (١٢) صيدا : على البحر (١٣) بيروت : بالأمان (١٤) جُبيل (١٥) هونين (١٦) جبليّة (١٧) تبنين (١٨) أنطرسوس: (دون أخذ بُرْجها) بالسيف (١٩) جبلة: مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان (٢٠) اللّاذقية : مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان (٢١) السرفند (٢٢) مدينة القدس الشريف ، خلّصه الله تعالى (٢٣) نابلس (٢٤) البيرة : بأرض القدس (٢٥) صفورية (٢٦) الطور (٢٧) حصن دُبُّوريّة (٢٨) الفُوله (٢٩) حصن عقربلا (٣٠) حصن جينين (٣١) سفسطية (٣٢) كوكب (٣٣) حصن عفري : شماليّ القدس (٣٤) بيت لحم . (٣٥) حصن العازرية : بأرض القدس (٣٦) البرج الأحمر (٣٧) حصن

الخليل عليه السَّلام (٣٨) بيت جبرين (٣٩) تلّ الصافية (٤٠) حصن مجدل (٤١) يابا (٤٢) قلعة الحبيب الفوقاني (٤٣) الحبيب التحتاني (٤٤) النطرون (٤٥) الحصن الأحمر (٤٦) لُدّ : بأرض الرملة (٤٧) قلنوسة (٤٨) يُبنىٰ (٤٩) القاقون (٥٠) القيمون (٥١) قلعة الكرك : بعد حصارٍ سنة ونصف (٥٢) قلعة الشوبك : بعد حصار سنتين (٥٣) قلعة السلع (٥٤) حصن يازور (٥٥) شقيف أرنوف (٥٦) حصن إسكندرونة : بين صُور وعكّا (٥٧) الوعيرة (٥٨) قلعة الجمع (٥٩) قلعة الطفيلة (٦٠) قلعة الهرمز (٦١) قلعة صفد (٦٢) قلعة أبي الحسن : بأرض صيدا (٦٣) صيدا : أيضًا (حصْن) (٦٤) المرقية (٦٥) حصن يحمور : بأرض عكا (٦٦) بلنياس : بين جبلة والمرقب (٦٧) صهيون (٦٨) بلاطنس (٦٩) حصن الجماهرية (٧٠) قلعة العيذد (٧١) بكّاس (٧٢) الشُّغر (٧٣) بكسرائيل (٧٤) السُّرمانية (٧٥) قلعة بُرزيّة (٧٦) درباك (٧٧) بُغراس : قريبًا من أنطاكية (٧٨) الدانور : بأرض بيروت (٧٩) السوفند : قريبًا من صيدا »[1].

فهلْ دَريْتَ الآنَ حُرْقةَ اللّنْبي ... وقد أكلَ صلاحٌ كبدَهُ ؟ وهل دريتَ لِمَ انتشىٰ اللّنْبي ، وقال : الآنَ انتهتِ الحروب الصليبية ؟ وهل دريتَ لِمَ وقف « غورو » أمامَ قبرِ صلاح ، وركله بقدمه قائلًا : « ها قد عُدْنَا يا صلاحَ الدين » ؟

تكلَّمْ ... كأنَّ الغدرَ يهدرُ مِنْ فمٍ ... وتنطلقُ الأحقادُ مِن كلماتِ
فدوّىٰ هنا يُنهي الصليبُ حروبَهُ ... ويُمضي فُنونَ الموتِ والفَتكاتِ
ويُمضي معَ الأيامِ نهْجَ إبادةٍ ... وخطةَ تمزيقٍ ووَأْدَ حياةِ
وهذي دمشقٌ والليالي تمدُّها ... مآتمُ أجيالٍ ونَعْيُ كُماةِ

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤٨ .

أَعيدي صَدَىٰ « غورو » ووقفةَ فاجرٍ ... جَبانٍ وزيفَ المجدِ والدَّعَوَاتِ
وقفتَ على قبرٍ يضمُّ جدارُهُ ... جلالَ حياةٍ في جلالِ مماتِ
أَراعَكَ هذا القبرُ أَمْ راعَكَ الذي ... يضمُّ مِن الأحداثِ والوَقَعاتِ
حَسِبتَ الذي في القبرِ مَيْتًا .. وإنَّهُ ... شهيدٌ مضىٰ للهِ في وَثَبَاتِ
فهذا شهيدُ البِرِّ والحقِّ والهُدَىٰ ... على جوْلةٍ للهِ أَوْ خَطَراتِ
صدوقٌ .. إلى الرحمٰنِ صحّ وِثَابُهُ ... وصحَّ يقينُ القلبِ والعَزَمَاتِ
يُرَوِّي الثرىٰ .. يمضي ويُسْكِب رَيَّهُ ... مِنَ الصدقِ عطْرًا .. ذَابَ في الخَلَجَاتِ
فخانَكَ مِن عزمِ الرجالِ عزيمةٌ ... ورُحْتَ ذليلَ الصوتِ والخُطُوَاتِ[1]
تُنادي صلاحَ الدينِ مهلًا فإنَّهُ ... يُدَوّي دَوِيّ السَّاحِ والحَلَبَاتِ
دَوِيًّا يَهُزُّ الأرضَ تحتَكَ هِزَّةً ... وينزعُ منْ جنبيْكَ أيَّ ثَبَاتِ
نداؤُكَ كيْدُ الظالمين وكِبْرُهُمْ ... وزيْفُ حضاراتٍ وزيْفُ دُعَاةِ
نداءُ جبانٍ جَاوَزَ الكبرُ جُبْنَهُ ... فخرَّ صريعَ الكِبْرِ والسَّكَرَاتِ
هُزِمتَ أمامَ القبرِ شرَّ هزيمةٍ ... كما هُزِمَ الأجدادُ في غَزَوَاتِ
نداءُ « صلاحَ الدين » مِلْءُ حواضر ... وملءُ زمانٍ زاهرٍ بشُدَاةِ
أولئكَ إنْ شئْتَ الجدودُ فَسَلْهُمُ ... لعلَّكَ تلقىٰ الصِّدْقَ بَيْنَ رُفَاتِ
جدودُكَ طوّاهُمْ ترابٌ وغيْهَبٌ ... وواراهُمُ التاريخُ في حُفُرَاتِ
أولئكَ سَلْهُم عن شِعَارٍ ورايةٍ ... وما زيّفوا مِنْ جَوْهَرٍ وَسِمَاتِ
أحريَّةُ الإنسانِ خنقُ حَنَاجِرٍ ... وزيفُ إخاءٍ في لهيبِ تِراتِ
وزيفُ مساواةٍ على جاهليَّةٍ ... مُؤَجَّجةِ الأهواءِ والنَّزَوَاتِ
وَهذَا صلاحُ الدينِ مجدٌ مُؤَثَّلٌ ... على الصدقِ منشورٌ على صَفَحَاتِ

---

(١) يعني : « غورو » .

حسامُ الدين لُؤْلُؤ العادِلي ، الأسدُ الضِّرْغام : يسير بالقيود إلى الفرنجة قبل لقائهم :

قال عنه الذهبي : « لؤلؤ العادلي الحاجب من أبطال الإسلام ، وهو كان المندوب لحرب فرنج الكرك الذين ساروا لأَخْذ طيبة ، أو فرنج سواهم ساروا في البحر المالح ، فلم يَسِرْ لؤلؤ إلَّا ومعه قيودٌ بعددهم ، فأدركهم عند الفحلتيْن ، فأحاط بهم ، فسلّموا نفوسهم ، فقيّدهم ، وكانوا أكثر من ثلاثمائة مقاتِل ، وأقبل بهم إلى القاهرة ، فكان يومًا مشهودًا »[١] .

لله دَرُّك مِن بطل ومن أمير ... تسير إلى أعدائك بقيودك بعددهم ، وأنت على يقين بأسرهم جميعًا !! هذه واللهِ البطولة والرجولة .

قال الذهبي : « خدم مع صلاح الدين ، وعُرِفَ بالشجاعة والإقدام ، وفي آخر أيامه أقبل على الخير والإنفاق في زمن قَحْط مصر ، وكان يتصدّق في كلّ يومٍ باثني عشرَ ألفِ رغيف ، مع عِدَّة قدورٍ من الطعام . وقيل : إن الملاعين التجئوا منه إلى جبل ، فترجَّل ، وصعِد إليهم في تسعة أجناد ، فأُلقي في قلوبهم الرعب ، وطلبوا منه الأمان ، وَقُتِلوا بمصر ، تولّى قتلهم العلماءُ والصالحون »[٢]. بل يُرسل منهم مَن يُذبح في مِنَىٰ ... إي والله .

وللأقزام نقول : هذا حال من خدم مع صلاح الدين ... ومن كان أمير بحْرِه ... أصابته عدوىٰ الشجاعة والإقدام . من سيّده ومَوْلاه ... فهل تتطامن منكم الرؤوس الجوْفاء وكبْرها الزائف .. أمامَ خادِم صلاح الدين .

يقول العلّامة أبو شامة المقدسي في « عيون الروضتين » (٢ / ٩١ –

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٨٤ – ٣٨٥ .

(٢) السير ٢١ / ٣٨٥ .

٩٥) ، في أحداث سنة ٥٧٩ هـ : « في شوّال مِن هذه السنة : كانت نصرة الأسطول[١] المتوجّه إلى بحر القلزم[٢] لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز ، وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك ، لمّا صعُب عليه ما توالى عليه من نِكاية أصحابه المقيمين بقلعة أيلة – وهي في وسط البحر ، لا سبيل عليها لأهل الكفر – أفكر في أسباب احتياله له ، وفتح أبواب اغتياله ، فبنىٰ سُفنًا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، ثمّ ركّب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ، ووقف منها مركبًا على جزيرة القلعة ، فمنع أهلها من استقاء الماء ومضىٰ الباقون في مراكب نحو « عيذاب » ، فقطعوا طريق التجّار ، وشرعوا في القتل والنهب والإسار ، ثم توجّهوا إلى أرض الحجاز ، وتعذّر على الناس وجه الاحتراز ، فعظم البلاء ، وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة النبويّة منهم على خطر ، ووصل الخبر إلى مصر وبها العادل أخو السلطان ، فأمر الحاجبَ حسام الدين لؤلؤًا ، فعمّر في بحر القلزم مراكبَ بالرجال البحريّة ذوي التجرِبة ، من أهل النخوة للدّين والحميّة ، وسار إلى أيلة ، فظفر بالمركب الفرنجي عندها ، فحرق السفينة وأسر جندها ، ثمّ عدا إلى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ، ودُلّ على مراكب العدوّ ، فتبعها فوقع بها بعد أيّام ، فأوقع بها وواقعها ، وأطلق المأسورين من التجّار ، وردّ عليهم كل ما أُخذ منهم ، ثمّ صعِد إلى البرّ فوجد أعرابًا ، فركب خيلهم وراء الهاربين من الفرنج ، فحصرهم في شعب لا ماء فيه ، فأسرهم بأسرهم ، وكان ذلك في أشهر الحجّ ، فساق منهم أسيرين إلى مِنَىٰ كما يُساق الهدْي ، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارىٰ ، فكتب السلطان إليه بضرْب رقابهم ، وقطْع أسبابهم ، بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ،

---

(١) بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، انظر الروضتين ٢ / ٣٥ .
(٢) أي : البحر الأحمر .

ولا أحد يَخبر طريق ذلك البحر أو يعرف . ومن كتابٍ عن السلطان إلى أخيه العادل بالإنشاء الفاضلي[١] :

« وصل كتابه المؤرّخ بخامس ذي القعدة ، المسفر عن المسفر من الأخبار ، المتبسّم عن المتبسّم[٢] من الآثار ، وهي نعمة تضمّنت نعمًا ، ونصرة جعلت الحرم حرمًا ، وكفاية ما كان الله ليؤخّر معجزة نبيّه ﷺ بتأخيرها ، وعجيبةٌ من عجائب البحر التي تُحُدِّث عن تسييرها وتسخيرها ، وما كان الحاجب لؤلؤٌ فيها إلّا سهمًا أصاب ، وحُمد مُسدِّدهُ ، وسيفًا قطع وشُكر مجرِّدُهُ ، ورسولًا عليه البلاغ ، وإن لم يُجهل ما أثرته يده ، وقد غَبْطناه بأجر جهاده ، ونجْح اجتهاده ، ركب السبيليْن برًّا وبحرًا ، وامتطى السابقيْن مركبًا وظهرًا ، وخطا أوسعَ الخطْوَ وغزا ، فأنجح الغزو ، وحبّذا العنان الّذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكسرة أنفق » . ومن كتابٍ آخر إلى بغداد[٣] : « كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرًا ، وافتضّوا من البحر بِكرًا ، وعمّروا مراكب حربية ، شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، وأثخنوا وأوغلوا

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١ / ٤٩٠ - ٤٩١ ، والروضتين ٢ / ٣٦ - ٣٧ .

(٢) تبسّم : هو أقلّ الضّحك وأحسنُه .

(٣) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٣٧ . ولا بدّ لنا من لَفْتِ نظر القارئ إلى أن القاضي الفاضل في كتابه هذا إلى بغداد ، قد عقد مقارنة بين محاولة أبرهة الحبشي الاستيلاءَ على مكة وتدمير الكعبة الشريفة ، وإلى ما أصابه وجيشَه مِن غضب الله تعالى ، وذلك في القرن السادس الميلادي - وبين ما يحصل في القرن الثاني عشر للميلاد ، ومحاولة الصليبيين الاستيلاء على البحر الأحمر والموانئ الهامّة للسيطرة على الموانئ الهامّة على سواحل اليمن والحجاز ، واستباحة الأماكن المقدسة والسيطرة على تجارتها .

في البلاد ، واشتدّت مخافة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلة ، لمّا أومض إليهم من خلل العواقب ، وما ظنّ المسلمون إلّا أنّها الساعة ، وقد نُشر مطويُّ أشراطها ، والدنيا قد طُوي منشور بِساطِهَا ، وانتُظِرَ غضب الله لغناء بيته المحرّم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيّه الأعظم ﷺ ، ورجوا أن تشحذ البصائرَ آيةٌ كآية هذا البيت ، إذْ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر ، وكان حسبَهم ونعمَ الوكيل ، وكان للفرنج مقصدانِ : أحدهما : قلعة أيلة الّتي هي على فوّهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر : الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين ، فأمّا الفريق الّذي قصد قلعة أيلة فإنّه قدّر أن يمنع أهلها من مورد الماء الّذي به قوام الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه ، وأمّا الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن ، فقدّر أن يمنع طريق الحاجّ عن حجّه ، ويحول بينه وبين فَجّه ، ويأخذ تجّار اليمن ، وكارم عدن ، ويلمّ بسواحل الحجاز ، فيستبيح – والعياذ بالله – المحارم ، ويُهيّج جزيرة العرب لعظيمة دونَها العظائم ، وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمّر مراكب وفرّقها على الفرقتين ، وأمرهم بأنْ تطوي وراءهم الشقتين ، فأمّا السائرة إلى قلعة أيلة ، فإنّها انقضّت على مُرابطي الماء انقضاضَ الجوارح على بناتِ الماء ، وقذفتها قذفَ شُهُبِ السماء مُسْتَرِقِي سمعَ الظَّلْمَاء ، فأخذت مراكب العدوّ برُمتها ، وقتلت أكثر مُقاتِلتها ، إلّا من تعلّق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد . فإنّ العربان اقتصّوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ، فلم ينجُ منهم إلّا مَن ينهي عن المعاودة ، ومَن قد علم أنّ أمر الساعة واحدة ، وأمّا السائرة إلى بحر الحجاز ، فتمادتْ في البحر الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء ، فأخذت تجّارًا وأخافت رفاقًا ، ودلّها على عورات البلاد – مِن الأعراب – مَن هو

أشدّ كفرًا ونفاقًا ، وهناك وقع عليها أصحابنا وأُخذت المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك ، ومقاطن المعاطب ، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلّونهم شلًّا ، ويقتنصونهم أسرًا وقتلًا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلًا ورجلًا نهارًا وليلًا ، حتى لم يتركوا عنهم مخبرًا ، ولم يُبقوا لهم أثرًا ، ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جهنَّم زُمَرًا** ﴾ [الزمر : ٧١] ، وقِيد منهم إلى مصر مائة وسبعون أسرىٰ » . اهـ .

السُّلطانُ محمد بن مراد الفاتِحُ .. فاتحُ القسطنطينيّة :

أنْعِم به من فاتح ! المجاهد العظيم محمد بن مراد بن محمد جلبي بن بايزيد ، الذي رفع راية الإسلام فوق أسوار القسطنطينية ، ولمّا يُكْمل الثالثة والعشرين مِن عمره .

مواقفُ بطولةٍ تدكُّ بعزَمَاتِهَا صُروح الجاهلية الصليبية ، تنكِّس راياتهم ، وتهدِّم ناقوسَهم وأحلامهم ، وتزلزلُ الأرض من تحت أقدامهم ...

مَن كان يظنُّ أنَّ هذا الغلام المبارك ، الذي وُلِدَ في ليلة السابع والعشرين مِن رجب عام ٨٣٥ هـ سيفتح القسطنطينية في الثلاثاء الموافِق العشرين من جمادى الأول عام ٨٥٧ هـ .

لقد كان فتح القسطنطينية أملًا يملك على السلطان محمد الفاتح كلَّ مشاعِره منذ كان فتًى ، ولَشدُّ ما كان يُمضي مع أستاذه ومربِّيه العالم الجليل الشيخ أق شمس الدين ساعاتٍ طوالًا ، يذاكره في الحديث الشريف : « لَتُفْتحنَّ القسطنطينية ، فلَنِعم الأمير أميرها ، ولَنعم الجيش جيشها »[1] .

---

(١) رواه البخاري في تاريخه والحاكم في المستدرك عن بشر الغنوي ، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم ٨٨٢ ، وضعيف الجامع رقم (٤٦٥٨) .

وكان التفكير بفتح القسطنطينية يكبر في نفس الفتى يومًا بيوم ، وأصبح فتْحُ القسطنطينية قمةَ طموحِ الفتى المؤمن ، وفي هذا الصدد يروي إسماعيل حامي « دنشمند » أنّ الفاتح كان يُمضي ساعاتٍ طويلة في كلّ ليلة – منذ أول يوم اعتلى فيه عرش السلطنة – في دراسة خريطة للقسطنطينية توضّح جميع نقاط الدفاع الإستراتيجية للبيزنطيين ، ونقاط الضعف في أسوارها .

وكان السلطان رحمه الله يُحيط جميع خُطَطِه ونواياه بالسِّرِّيَّة المطلقة ، وتراءىٰ للسلطان البَدْءُ في بناء قلعة ضخمة على الشاطئ الأوربيّ من البوسفور ، وقام بنفسه باختيار موْقعها ، وشارك بنفسه في أعمال البناء وأطلق عليها اسم « روملي حصار » ، أي : قلعة الروم ، وسيطر بها على مدخلي البوسفور من شاطئيْه : الأسيويّ والأوربي ، وضمن العثمانيون منع وصول أية إمدادات إلى القسطنطينية ، وخاصّةً مِن مملكة ترابزون النصرانية ، وأصبح على كلّ سفينة تريد العبور من البوسفور أن تخضع لتفتيشٍ دقيق ، وأن تدفع رسْمًا مقابل السماح لها بالعبور .

وأَقَضَّ الهَلَعُ مضاجع الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر إمبراطور القسطنطينية ، فبعث يستنجد بابا روما ودُول أوربا النصرانية ، وبعث برسالةٍ إلى بابا روما يُنْذره فيها بأنه إذا سقطت القسطنطينية في يد المسلمين ، فإنّ هدفهم التالي سيكون روما مركز البابوية . وأبدىٰ الإمبراطور قُسطنطين استعداده للموافقة على توحيد كنيسته الأرثوذكسية بالكنيسة الكاثوليكية تحت زعامة البابا ، مقابل تعهُّد البابا بنجدته ، وبلغ الذُّعر به أنْ جَثَمَ بين يدي الكاردينال « ايزيذور » الكاثوليكي ، طالبًا بركته في القسطنطينية ، مركز الكنيسة الأرثوذكسية .

وأعلن السلطان محمد الفاتح في أحد أيام شهر جمادى الأول سنة ٨٥٦ هـ الحرب على الدولة البيزنطية ، ومنذ ذلك اليوم بدأ السلطان محمد

الفاتح في تشديد حصاره حول القسطنطينية ، وحين تيقَّن أنّ الحصار أصبح مُحْكَمًا ، عاد إلى « أدرنة » لِيمضي فيها موسم الشتاء ، وفي تلك الأثناء كان السلطان يُشرف بنفسه على صنْع مدفع ضخمٍ لم يسبق لأحد أنْ صنع شبيهًا له .

ووضع البيزنطيون السلاسل الحديدية في خليج « إستنبول » ، لمنع السفن الحربية العثمانية من الاقتراب من أسوار القسطنطينية من تلك الجهة .

وفي الخامس والعشرين من شهر ربيعٍ الأول عام ٨٥٧ بدأت طلائع الجيش العثماني بقيادة السلطان محمد الفاتح في الوصول إلى مشارف القسطنطينية ، وكان عدد أفراد ذلك الجيش بين مائةٍ وخمسين ألفِ جنديٍّ كحدٍّ أدنى ، ومائتي ألفِ جنديٍّ كحدٍّ أعلى . وبدأ الجيش زحْفه ، وسيطرت على رجاله فكرة الجهاد في سبيل الله والشهادة ، وألهب مشاعرَ الجنود تكبيرُ المئات من العلماء ، وعلى رأسهم الشيخ أق شمس الدين والشيخ القوراني ، والشيخ خسروي . وكان على الميمنة : إسحاق باشا ، حيث يقع الباب العسكري ، وعلى الميسرة : « دايي كراجا » باشا ، حيث يقع باب أدرنة ، وعلى القلب : السلطان محمد الفاتح باتجاه باب المدفع ، وتمركز « زاغنوس » باشا على رأس قوةٍ فوق المرتفعات المشرِفة على منطقة « قلطة » ، لضمان عدم قيام الجنْوِيين بنجدة القسطنطينية .

وفي اليوم الثاني من ربيع الآخر ، بدأتِ المدافع العثمانية في دكّ أسوار القسطنطينية ، واستمرّت في ذلك بدون انقطاع لمدة ثمانيةٍ وأربعين يومًا ، ولم تتوقّف إلَّا عندما أزف موعد الهجوم الأخير .

وبدأت السفن الحربية العثمانية بقيادة « بالطا أوغلو سليمان » بك عملياتها العسكرية ، فسيطرت على جزيرة « برينكيبوس » الحصينة .

وفي الثالث عشر من ربيع الآخر فُوجئ المدافعون عن القسطنطينية بأمرٍ لم يكن يخطر لهم على بالٍ أبدًا ؛ فقد كانت حوالي ثمانين سفينة حربية عثمانية تتمركز داخل مياه خليج القسطنطينية ، وظَنَّ قسطنطين وقادته أنّ العثمانيين قد نجحوا في تحطيم السلاسل الحديدية ، التي كانوا قد أغلقوا بواسطتها مدخل الخليج لمنع أيِّ سفينة عثمانية مِن العبور ، ولكنْ سرعان ما جاءتهم الأنباء تؤكِّد سلامة السلاسل ، فتملّكتْهم الدهشة ، وانعقدتْ ألسنتهُم من العجب ، ولئن كان الخوف والهَلَع قد عقد ألسنة نصارىٰ القسطنطينية ، وشلّ تفكيرهم ، فجعلهم ينسبون وجود السفن العثمانية داخل الخليج إلى معجزة وهمية – فإنّ حماس السلطان الفاتح ، وصدْقَ جهاده ، وعلوّ همّته ، قد كشفا عن بصيرته ، وفجّرا كَوَامِن عبقريته ، فابتدع طريقةً لإيصال السفن إلى داخل الخليج ، لا تكاد تخطر على بال ؛ وهل يخطر على بالِ أحد أنَّ السفن يمكن أنْ تمخر عُبَاب « الأرض » مثلما تمخر عباب الماء ؟! ذلك أنَّ السلطان محمد الفاتح – أنعِم به مِن فاتح – قد حطَّم ما ألفه الناس ، وأصرَّ على أنْ تمخر سفُنه عبابَ الأرض لمسافةٍ تزيد على ستة أو ثمانية أميال .

وكانت الطريقة التي اتُّبِعَتْ في تنفيذ تلك الفكرة العبقرية ، تعتمد على رصِّ الآلاف من جذوع الأشجار الضخمة في صفوف منتظمة على طول الطريق ، وسَكْب أطنان من الدهن والزيت فوقها ، لتسهيل عملية انزلاق السفن فوق هذا الجسر الخشبي ، وشارَك بضعةُ آلاف جنديٍّ مسلم في عمليات سَحْبِ السفن فوق الجسر ، وأُوكل إلى مجموعات أُخرىٰ مهمةُ رَبْطِ السفن من جميع جوانبها بحبال متينة ، لضمان توازنها أثناء سحبها ، فإذا مالت أثناء الطريق إلى جهة ، سارع المُمْسكون بالحبال من الجهة المعاكسة بشدِّ حبالهم ، فتستوي السفينة من جديد . وتمكّن المسلمون

في ليلة واحدة من نَقْلِ ثمانين سفينةً ، حتى إذا وصلوا إلى هدفهم ، أنزلوها في مياه الخليجِ ، وامتطَوْها بينما أصواتهم تهدر بالتكبير .

وقام السلطان طوَال يومي ١١ ، ١٢ ربيع الآخر بقصف السفن الحربية البيزنطية المتواجدة في الخليج ، بغية جعلها في حالة من الخراب ، لا تستطيع معه التصدّي للسفن العثمانية عندما يتمّ إنزالها إلى مياه الخليج ، كما قام في نفس الوقت بقصْف أسوار القسطنطينية بكثافة ، وذلك بغية إشغال البيزنطيين طوال الوقت الذي يقوم في أثنائه بسحب السفن ، عبر الطريق البرِّي إلى مياه الخليج ، وأمر السلطان باستعمال مدفعٍ من اختراعه – أطلق عليه اسم « مدفع الهاون » – في قَصْف السفن .

واخترع السلطان بُرْجًا متحرّكًا ، يزيدُ ارتفاعه عن ارتفاع أسوار المدينة ، ويتألّف مِن عدّة طبقات لدكّ أبراج باب المدفع .

وَصَحَتْ أوربا النصرانية من غفلتها ، وأرسل « هونياد » ملك المجر إلى محمد الفاتح أنّ نصارىٰ المجر سيكونون إلى جانب أبناء دينهم (نصارىٰ القسطنطينية) ، فلم يردَّ السلطان محمد الفاتح إلَّا بأنْ أخذ موفدَهُ إلى مواقع المدافع العثمانية ، وأشار إليها قائلًا : قل لسيدكَ : هذا هو جوابي .

وفي يوم التاسع عشر من جمادى الأول ، بعث السلطان بعشَرات المُنادين ليجُوبوا صفوف الجند ، مُعلنين أنّ السلطان قد أمر بالاستعداد لشنّ الهجوم الفاصل ضدَّ أعداء الإسلام ، وأنه قد أمر برفْع مقام جميع الذين يسبقون إلى اختراق أبواب المدينة إلى داخلها قبل غيرهم ، وأن تسجل أسماءُ هؤلاء السبّاقين إلى اختراقِ المدينة لمنْحهم أُعطياتٍ مُجزية ، تُجْرىٰ على نَسْلهم ما بقي للدولة العثمانية سلطان .

وأصدر السلطان أمره بعد الغروب بإيقاد نيران المشاعل في البر والبحر ، بينما كانت أصوات عشرات الآلاف تتصاعد في السماء ، بالتكبير والتهليل والدعاء والابتهال إلى الله .

وبدأ السلطان في صباح اليوم السابق لدخول القسطنطينية ، فنوى الصيام وندب جنده إلى الصيام ، وبعد الإفطار دعا السلطان مجلس حربه ، وقادة جيشه إلى الاجتماع ، وقال لهم : « إذا أعاننا الله عز وجل ففتح علينا القسطنطينية ، فسيتحقّقُ فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته العظام ، وسيكون من حظّنا ما تضمّنه حديث رسول الله ﷺ من التقدير والتشريف ، فأبلغوا أبناءَنا العساكر فردًا فردًا أنَّ الظفر العظيم الذي سننجزه ، سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا . ويجب على كلّ جنديٍّ أنْ يجعل تعاليم شريعتنا الغرّاء نصْب عينيْه ، فلا يصدر عن أيّ واحدٍ منهم ما يُنافي هذه التعاليم ، وليتجنَّبوا الكنائس والمعابد ، ولا يمسُّوها بأذًى ، وليدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون .

وفي صباح اليوم التالي ، زحف الجيش الإسلامي يسبقه هديرُ التكبير والتهليل ، وفي مقدِّمته السلطان محمد الفاتح ، ونصب المجاهدون ألفي سُلَّمٍ خشبي ، ليصعدوا إلى أعالي الأسوار والأبراج ، وقذفوا بأكثر من ثلاثين ألف مُجدّلٍ ، لتثبيتها بواسطة الخطاطيف والكلاليب فوق الأسوار ، ليصعدوا بواسطتها لملاقاة جنود النصارى في أعالي الأسوار والأبراج ، وكان تكبير معسكر الترك يتردّد وكأنّه زلزال الحشر ، وكأنّ القوات التركية تريد أن تكسب الدنيا والآخرة في آنٍ واحد . واحتدم القتال ، وبذل المدافعون عن المدينة بقيادة « جوستنيان » الجنويّ غاية جهدهم في صدّ الهجوم الإسلامي ، وانهالت السِّهَامُ والسيوف وقوارير الزَّيْت المغليّ على المسلمين . وطفق القساوسة والرهبان يؤكّدون للناس أن الملاك الأزرق

لن يسمح للمسلمين بدخول القسطنطينية .

وأمر السلطان بتركيز الهجوم على ثلاث جهات معيَّنة من الأسوار ، كَثُرتْ فيها الفجوات والثغرات التي أحدثها القصْف المدفعي .

وفي يوم الثلاثاء ، العشرين من جمادى الأول من عام ٨٥٧ هـ - وهو يوم فتح القسطنطينية - خطب السلطان فيمن حوله من المجاهدين خطبة ، لم تزد على بضع كلمات ، كما يروي « إسماعيل دنشمند » في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، قال فيها : « يا أبنائي ، ها أنا ذا مستعدٌ للموت في سبيل الله فَمَن رغِب في الشهادة فلْيلحق بي » ، لله دَرُّكَ من فاتح !

وتدافع المجاهدون وراء قائدهم العظيم ، كأنهم السيل العَرِم ، وما هي إلَّا سُويعات حتى كانت حدّة المقاومة الصليبية تتلاشى شيئًا فشيئًا ، واندفع السلطان بجنوده إلى داخل المدينة ، من ثغرةٍ في جهة باب المدفع ، وتمكّن القائد المسلم « قراجا بك » مِن اختراق فجوة في أسوار المدينة من جهة الشمال ، وانهمر المجاهدون من ورائه ، وتمكّن جنديٌّ مسلم من قتل قائد النصارى في تلك الجهة ، فانهارت مقاومة المدافعين وولَّوْا هاربين .

وفي تلك الأثناء تمكّن قائد الأسطول العثماني « حمزة باشا » من إزالة السلاسل الحديدية والدخول بسُفنه ، وانضمَّ بها إلى السفن العثمانية المتواجدة في خليج القرن الذهبي ، واقترب من أسوار المدينة التي تهدّمت بفعل القصف المدفعيّ ، واندفع بجنوده من فوق أنقاضِ الأسوار إلى داخل المدينة من تلك الجهة .

وقُتل « جوستنيان » قائد المدافعين عن المدينة ، وأجهز أحد المجاهدين

على الإمبراطور قسطنطين في المعركة ، ووثب العديد من المجاهدين إلى أعالي الأسوار ، يُزيلون الرايات البيزنطية من فوقها ، ويضعون مكانها الرايات العثمانية ، وقام العشرات برفع أصواتهم بالأذان من فوق أسوار المدينة ، وحين رأى السلطان الفاتح رايات الإسلام تتهادىٰ بِخُيَلاء وشموخ فوق أسوار المدينة ، وعندما سمع صوت الأذان الهادر – خرّ ساجدًا على الأرض شكرًا لله .

ومضىٰ المسلمون في تقدُّمهم من ثلاث جهات إلى مركز المدينة ، حيث تقع كنيسة أياصوفيا ، ولم يواجهوا مقاومة ذات بالٍ ، وكانت شوارع القسطنطينية وأزقّتها شبهَ خالية من الناس ، فقد الْتجأ معظمهم إلى كنيسة أياصوفيا .

ودخل السلطان العثماني المدينة من باب المدفع « توب كابي » ، واتجه مباشرة إلى كنيسة أياصوفيا ، فوجد بها أعدادًا كبيرة من النصارىٰ ، فطمْأنهم وأمَّنهم على أرواحهم ، وكان وصول السلطان وقتَ الظُّهر ، فأمر المؤذّن فأذّن لصلاة الظهر ، فصلّى المسلمون الصلاة جماعةً في داخل الكنيسة ، بعد أن أُخليت ممّن كان فيها ، وبعد أن تمّ إزالة ما كان بداخلها من تماثيل ، ومنذ ذلك الوقت تحوّلت كنيسة أياصوفيا إلى مسجد « أياصوفيا » ، وأُقيمت أول صلاةِ جمعةٍ في مسجد أياصوفيا في اليوم الثالث والعشرين من جمادىٰ الأول ، عام ٨٥٧ هـ وفق الأول من حُزيران عام ١٤٥٣ م ، وكان خطيب الجمعة وإمامها العالم المجاهد أق شمس الدين . وهناك رواية تقول بأنَّ السلطان الفاتح هو الذي ألقىٰ خطبة الجمعة ، وأنّ الشيخ أق شمس الدين أَمَّ الناسَ في الصلاة .

وكان عدد قتلىٰ النصارىٰ أكثر منْ أربعة آلاف قتيل ، بينما بلغ عدد الأسرىٰ أكثر من خمسين ألف مقاتلٍ ، كان أحدهم إذا رأى جنديًّا مسلمًا ،

يركع على الأرض رافِعًا يديه ، فلا يهدأ روعُه إلَّا بعد أنْ يرىٰ الجنديّ المسلم يكتفي بأسره .

وقبل وصول الفاتح إلى كنيسة أياصوفيا ، وعند بلوغه منتصف المدينة ، توقّف عن المسيرة ، وخطب فيمن حوله ، وقرأ عليهم بلغةٍ عربية فُصْحَىٰ البشارةَ النبوية الكريمة ، وعند وصوله إلى الكنيسة ، سجَدَ لله شكرًا .

هَـٰذِي الدِّيَارُ «بَني عُثْمَانَ» كَمْ رَفَعَتْ ... للهِ مِـنْ رَايَـةٍ خَفَّاقَـةِ العَـذَبِ
وَكَمْ تُرَىٰ دَفَعَتْ للهِ مِن عُصَبٍ ... تَمْضِي عَلَىٰ سَاحِهَا مَوْصُولَةَ العُصَبِ
هُنَا السَّلَاطِيْنُ كَانَتْ في مَجَالِسِهَا ... نُورًا مِنَ الحَقِّ أَوْ بَرْقًا مِنَ القُضُبِ
هُنَا الوُفُودُ الَّتي جَاءَتْ مُسَلِّمَةً ... فَأَسْلَمَتْ أَوْ تَلَقَّتْ عِزَّة الأدَبِ
أَحْلَى الأَمَاني لَدَيْهَا أَنْ تَرَىٰ رَجُلًا ... شَقَّ المَيَادِينَ شَقَّ الفَارِسِ الضَّرِبِ
وَجَمَّعَ النَّصْرَ مِنْ وَادٍ وَمِنْ جَبَلٍ ... وَمِنْ بِحَارٍ وَمِنْ نَهْرٍ وَمِنْ شُعَبِ
حَتَّىٰ أَتَىٰ لِمَضِيقٍ غَيْرِ مُنْفَرِجٍ ... وَزَحْمَةٍ مِنْ عَظِيمِ الهَمِّ والنَّصَبِ
ضَاقَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَىٰ مِنْ جَحَافِلِهِ ... جَحَافِلًا وَرَمَىٰ بِالنَّارِ بالشُّهُبِ
حَتَّى إِذَا اسْتَغْلَقَ اللَّيْلُ البَهِيمُ وَمَا ... رَأَى بِهِ فُرْجَةً تُنْجِيهِ مِنْ كُرَبِ
تَدَفَّقَ النُّورُ شَلَّالًا يُضِيءُ لَهُ ... بُشْرَى مِنَ اللهِ لَمْ تَكْذِب وَلَمْ تَرِبِ
لَتُفْتَحَـنَّ بِلَاد الرُّومِ فَاتِحُهَـا ... نِعْمَ الأَمِيرُ وَنِعْمَ الجَيْشُ فَاقْتَرِبِ
بُشْرَىٰ الرَّسُولِ[1] أَضَاءَتْ كُلَّ نَاحِيَةٍ ... وَأَشْعَلَـتْ هِمَّـةً مِنْ فِتْيَةٍ نُجُـبِ
وَفَتَّحَتْ سُبُلًا لَانَتْ مَسَالِكُهَا ... لِصَـابِرٍ فِي سَبِيلِ اللهِ مُحْتَسِـبِ
وَأَحْكَمَ الأَمْرَ فَانْسَابَتْ بَوَارِجُهُ ... مَا بَيْنَ مُخْتَبِىءٍ مِنْهَا وَمُنْسَرِبِ
حَتَّىٰ أَحَاطَ بِهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ... وَأَحْكَمَ الطَّوْقَ مِنْ بَابٍ وَمِنْ سَرَبِ

---

(١) حديث : « نعم الجيش جيشها ، ونعمْ الأمير أميرها » : « ضعيف » .

فَرُجَّتِ الأَرْضُ مِنْ زَحْفٍ تَمُوجُ بِهِ ... دُنْيَا البُطُولَاتِ إِعْصَارًا بِكُلِّ أَبِي
كَأَنَّمَا الأَرْضُ شُقَّتْ عَنْهُمُ فَعَلَوْا ... أَكْتَافَهَا وَرَمَوْهَا رَمْيَةَ العَجَبِ
وَأَشْرَقَ الفَجْرُ وَالدُّنْيَا تُطِلُّ عَلَى ... بُشْرَى وَآيَةِ نَصْرٍ أَوْ حَدِيثِ نَبِي
بُشْرَى مَعَ الدَّهْرِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... وَلَهْفَةُ الشَّوْقِ مِنْ جُنْدٍ وَمِنْ عُصَبِ
جَالُوا بِهَا فَكَأَنَّ النُّورَ يَغْمُرُهَا ... يَرْوِي وَيَغْسِلُ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ شُعَبِ
وَأَطْلَقُوا دَعْوَةً للهِ صَادِقَةً ... تُزِيحُ مِنْ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ والحُجُبِ
كَأَنَّمَا فَتَّحُوا غُلْفَ القُلُوبِ بِهَا ... فَتْحًا مِنَ اللهِ لَا فَتْحًا مِنَ القُضُبِ
قُسْطَنْطِنِيَّةُ هٰذَا النُّورُ فَانْتَفِضِي ... وَكَبِّرِي وَاسْجُدِي لِلهِ وَاقْتَرِبِي
وَهَلِّلِي يَا رُبَى اسْتَنْبُول وَائْتَلِقِي ... وَزَيِّنِي الدَّارَ مِنْ حلْيٍ وَمِنْ قُشُبِ
وَرَفْرِفِي بِالهُدَى مِنْ كُلِّ رَابِيَةٍ ... مَآذِنًا خَشَعَتْ بالآي وَالرَّهَبِ
لَوْلَا فُتُوحُ رَسُولِ اللهِ قُلْتُ هُنَا ... فَتْحُ الفُتُوحِ وَهٰذِي زَهْوَةُ الغَلَبِ
تَسَابَقَ الخُلَفَاءُ المُسْلِمُونَ لَهَا ... عَلَى الزَّمَانِ سِبَاقَ الصَّادِقِ الأَرِبِ
فَلَمْ يَنَلْهَا سِوَى هٰذَا الفَتَى قَدَرًا ... للهِ يُمْضِيهِ فِي تُرْكٍ وَفِي عَرَبِ
مُحَمَّدٌ فَاتِحُ الدُّنْيَا وَمَا طَمِعَتْ ... نَفْسٌ لَهُ بِرَخِيصِ الفَتْحِ وَالسَّلَبِ
يَمْضِي إِلَى اللهِ وَالفِرْدَوْسُ غَايَتُهُ ... وَلَهْفَةُ الشَّوْقِ تُنْجِيهِ مِنَ الرِّيَبِ
كَأَنَّ وَثْبَتَهُ للهِ دَفْقُ هُدَى ... يُفَجِّرُ النُّورَ فِي وَادٍ وَفِي هِضَبِ
كَأَنَّمَا أَنْبَتَتْ أَسْيَافُهُ وَرَوَتْ ... وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَى الأَشْوَاكِ وَالغَرَبِ
وَصَارَتِ الأَرْضُ رَوْضًا مِنْ أَزَاهِرِهِ ... طَلَائِعُ الحَقِّ مِنْ صِيدٍ وَمِنْ نُجُبِ
فَتْحٌ مِنَ اللهِ مَا أَحْلَاهُ مِنْ أَمَلٍ ... بَلَغْتَهُ وَكَرِيمِ السَّعْيِ وَالطَّلَبِ[1]

للهِ درُّ محمد الفاتح مِن فاتح صادق الحبِّ لله ورسوله ، عالي الهمّة في الجهاد والبذْل ...

---

(١) « فتح القسطنطينية » من « ملحمة القسطنطينية » لعدنان النحوي .

كتب رحمه الله إلى سلطان دولة المماليك الشراكسة في مصر « إنيال شاه » : « إنَّ مِن أحسن سنَنِ أسلافنا ، أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لوْمة لائم ، ونحن على تلك السُّنة قائمون ، وعلى تلك الأمنية دائمون ، متمثِّلين بقوله تعالىٰ : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنونَ باللهِ** ﴾ [التوبة : ٢٩] ، ومستمسكين بقوله عليه السلام : « مَن اغبرَّتْ قدماه في سبيل الله ، حرّمه الله على النار » . ولهذا ، فقد هممنا هذا العام ، مُعْتَصمين بحبلِ اللهِ ذِي الجلال والإكرام ، ومستمسكين بفضل الملك العلَّام ، إلى أداء فرض الغزاء (الغزو) الذي فرضه علينا الإسلام ، مُؤْتمرين بأمره تعالىٰ : ﴿ **قَاتِلُوا الذين يَلُونَكُمْ من الكفار** ﴾ ، وجهّزنا عساكر الغزاة المجاهدين من البر والبحر ، لفتْح مدينةٍ مُلِئَتْ فجورًا وكفرًا ، والتي بقيتْ وسط الممالك الإسلامية تُباهي بكفرها فخرًا » .

لله دَرُّ الفاتح من سلطانٍ بلغت الجزية في عصره حوالي ستة وثلاثين ألف دوقية ذهبية ، وهو مبلغ كبيرٌ جدًّا في وقته !! وجُبِيَتْ هذه الجزية على النحو التالي :

مملكة ترابزون : (٢٠٠٠) دوقية ، ومملكة الصِّرب : (١٢٠٠٠) دوقية ، وجمهورية دوبروفنك : (٣٠٠٠) دوقية ، وبلاد المورة : (١٠٠٠٠) دوقية ، ومستعمرة ساكين الجنوية : (٦٠٠٠) دوقية ، ودوقية ميدللي الجنوبية : (٣٠٠٠) دوقية .

ودفع البنادِقَةُ جزيةً سنويةً مقدارها مائتا ألفِ دوقية ذهبية .

لله دَرُّ الفاتح وهو يواجه الحِلْف الصليبيّ الذي عقده ملك المجر « لاديسلاس » ، وملك الصرب « جورج برانكوفيتش » ، فاندفعت قوات المجر بقيادة « هونياد » ، وجيشُ الصرب سنة ٨٥٩ هـ . وانتصر السلطان

محمد الفاتح على هذا التحالف ، واضطُرّ « هونياد » المجَري إلى الفرار داخل المجر ، واضطُرّ « برانكوفيتش » إلى دَفْعِ جزية سنوية ، مقدارها ثلاثون ألف دوقية ذهبية .

ولله دَرُّ الفاتح حين يواجه تحالفًا صليبيًّا آخر من جيش ألبانيا (بلاد الأرناؤوط) ، بقيادة ملكها « إسكندر بك » ، وقوات نابولي الإيطالية بقيادة ملكها ، وتمكّن الفاتح من هزيمة التحالف « الإيطالي الأرناؤوطي » في معركة « بيرات » . واضطُرّ « إسكندر بك » إلى الفرار بعد قَتْل وأسر معظم أفراد جيش التحالف .

ولله دَرُّه وهو يلقِّن الأدبَ فرسانَ القدِّيس « يوحنَّا » ، وكانوا خليطًا من الفرنسيّين والطَلْيَان والألمان ، ويُوقع خسائرَ كبيرةً في عديد من جُزُرهم !!

ولله دَرُّه وهو يحاصر بلغراد في التاسع من رجب عام ٨٦٠ هـ ، بل ويدخلها في الثامن عشر من شعبان ، ثم يتراجع عنها ثانية ، وتمكّن مَغَاويرُ الإسلام مِن قَتْل القائد المجري هونياد ، وقائد المتطوعين الصليبيين الراهب « كابيسترانو » !!

ولله دَرُّ الفاتح وهو يفتح « أثينا » وبلاد اليونان عام ٨٦٢ هـ ، واستمرّت سيطرة العثمانيين على أثينا ومعظم بلاد اليونان حوالي ٣٧١ عامًا من غير انقطاع !!

ولله دَرُّه حين يكمل السيطرة على جنوب شبه جزيرة المورة عام ٨٦٣ هـ !!

ولله دَرُّه وهو يفتح « سمِندرة » عاصمة مملكة الصِّرب ، ويعلن ضمَّ بلاد الصرب بشكلٍ نهائي ، وجعلِهَا إحدىٰ ولايات الدولة العثمانية !!

ولله دَرُّه وهو يفتح مَحْمِيَّة « أماسرا » التي كان يسيطر عليها الجِنْوِيُّون ،

ثم مقاطعة « سينوب » !!

ولله دَرُّه وهو يُنهي آخر معقل نصراني في بلاد الأناضول ، وهو مملكة « طرابزون » عام ٨٦٥ هـ ، فقد حصّنها النصارىٰ من جميع الجهات ، إلَّا من الجهة المحاذِيَة لسلسلة جبال البلغار ، فلم يكنْ يخطر ببالهم أنْ يستطيع أيُّ جيشٍ اختراقَ تلك الجبال الوَعِرة التي تغطِّيها الغابات العشوائية ، وتكتنِفُهَا الثلوج .

وأصرّ السلطان الفاتح على القيام بتلك المغامرة ، التي لا تقلُّ خطورةً ومشقَّةً عن عملية نقلهِ ثمانين سفينةً حربيةً ، عبر ثمانيةِ أميال فوق الأرض اليابسة . وفوجئ نصارىٰ « طرابزون » ذات ليلةٍ بهديرِ التكبير والتهليل ينطلق من تلك الجهة التي حسبوها في مأْمَن ، وكان وَقْعُ سقوط مملكة طرابزون النصراينة كوقع الصاعقة على نصارىٰ أوربا ، ففاضتْ بالأحزان نفوسُهم بعد نهاية آخر بَصِيصِ أملٍ لهم .

لله دَرُّه حين يُتَمِّم وجهَه شَطْرَ بلاد الأفلاق (رومانيا) ، وينتصر على أمير الأفلاق « داكول » الملقَّب بالشيطان ، ويفرُّ « داكول » الشيطان إلى المَجَر الذي خشي ملكها من غضب الفاتح ، فيسجن داكول ، ويضمُّ الفاتح رومانيا عام ٨٦٦ هـ إلى الدولة العثمانية !!

ولله دَرُّه وهو يفتح جزيرة « ميديللي » ، ويعدم جميع الجنود البيزنطيين والمرتَزِقَة الصليبيين ، جزاءَ ما اقترفوه من جرائم السَّلْبِ ضد السفن العثمانية !!

لله دَرُّه وهو يؤدِّب ملك البوسنة النصرانية « ستيفان توماشوفش » ، ويقتله ويستولي على مملكته عام ٨٦٧ ، ويضمُّها لملك المسلمين !!

ولله دَرُّه حين يضمُّ « قونية » عاصمة سلطنة « قرمان » السلجوقية إلى الدولة ، عام ٨٧١ هـ لتصبح ولاية عثمانية .

ولله دَرُّ الفاتح وهو يؤدّب ستيفان الرابع (فارس المسيح) ، ويُلحق الهزيمة بالجيش البغداني في ربيع الآخر عام ٨٨١ هـ .

ولله دَرُّه حين تُسلّم له مدينة « إشكودرا » آخر معاقل البنادقة في بلاد الأرناؤوط ، لتستمر سيطرة العثمانيين على جميع بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) ، حوالي ٤٣٣ عامًا .

ولله دَرُّه وهو يؤدِّب الكونت « كينيس » ويُوقعه في الأسر هو وبضعة آلاف من جيشه ، من بينهم أكثر من خمسمائة راهب كانوا في عداد المقاتِلين !!

ولله دَرُّه وهو يؤدِّب الإيطاليِّين ، ويضع أول قدمٍ له في إيطاليا في العشرين من جمادى الأولى عام ٨٨٥ هـ ، ويستولي على ميناء ومدينة « أوترانتو » في جنوب إيطاليا ، بعد حصار دام أربعة عشر يومًا ، ويفرّ أهل نابولي من مدينتهم ، ويدبُّ الرعب في قلب بابا روما ، بعد علْمه بأنّ السلطان يُعِدُّ للاستيلاء على نابولي ، ليصل إلى هدفه الرئيسيّ : روما (التفاحة الحمراء) ، لولا موت محمد الفاتح ، « وفي الليلةِ الظلماءِ يُفْتَقَد البدرُ » .

وَوَصَّى الفاتح ولدَه « بايزيد » : « يا بُنَيَّ ، ها أنا ذَا أموت ، تاركًا ورائي كلَّ النِّعم الجليلة التي أكرمني بها الله ، إلى نِعَمٍ أكبر وأبقى ، فإنْ رَغِبْتَ في اللِّحاق بي إلى رحاب الله ، فالزمْ طريقي ، واسلك السبيل الذي سلكتهُ مجاهدًا في سبيل الله . يا بُنَيَّ ، إنّ نشرَ الإسلام في الأرض هو واجب الملوك على الأرض ، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعتَ » .

ونختم بقصة رواها المؤرخ التركيُّ إسماعيل حامي « دنشمند » ، في كتابه : « موسوعة التاريخ العثماني » : أن « سارّة خاتون » شاهدتِ السلطان بحالة من الإنهاك والتعب الشديد ، اضطرته إلى الاضطجاع إلى جذْعِ شجرة ، بعد أن بذل جهدًا كبيرًا في مشاركة جنوده في تقطيع الأشجار ، وإزالة

الثلوج لتمهيد الطريق أمام الجيوش ، فاقتربت منه ، وجرىٰ بينهما الحوار التالي :

قالت سارة خاتون : يا بنيَّ ، ما الذي يُجبرك على تَحمُّل هذا العَناء ، من أجل مدينة صغيرة ؟ فأجابها السلطان الفاتح : يا أُمَّاهُ ، هذا العناء كلُّه في سبيل الإسلام ، وهل تَظنِّين أنّنا نكون أهلًا لنُسمَّىٰ بالمجاهدين ، إذا لم نتحمَّل هذا العناء في سبيل الله ! يا أمَّاه ، إنَّ هذه السيوف التي نحملها ليست للزينة والتَّباهِي ، وإنما لِنقاتِل بها في سبيل الله[1] .

○ القَبْـوُ الزُّجَـاجِيُّ ○

أيُّهَا الفَاتِحُ .. ضَيَّعْنَا مَفَاتِيحَ المدائنْ !!
ونسِينا البحرَ .. والموجَ وتهليلَ السفائنْ !!
ونسينا الخَيْلَ والرمحَ .. وأسرارَ الكمائنْ
سورةُ الفتحِ هَجَرْناها .. وبدَّدْنَا صَدَاها
وتراءَتْ في حنايانا أنينًا وحنينَا
كلّ أشجار الفتوحاتِ أَرَاهَا
عارياتٍ من رُؤَاها
مِن ثمارِ المجدِ ..
في أوراقها جفَّتْ دماءٌ
كنتَ تُسقِيها شَذَاها
أيُّهَا الفاتحُ أَقْبِلْ .. أنتَ ما زلتَ فَتَاها

---

(١) انتهى ملخصًا من كتاب : « السلطان المجاهد محمد الفاتح فاتح القسطنطينية » لزياد أبو غنيمة – دار الفرقان .

انْزَعِ السيفَ مِن الغمْدِ فقد تهْنَا وتَاها !!
لم يزلْ سيفُكَ في القَبْو الزجاجيّ سَجينَا
نائمًا في غِمْدِهِ يحرسُ أسيافَ الخلافَهْ !!
وإلىٰ جانبهِ سِيفُ عليٍّ « ذو الفقارْ »
ذلكَ الباترُ في كلِّ غزاةٍ : سيرةَ الكفرِ .. صداهُ وشغافُه
انظرِ الآنَ إليهْ ...
ليسَ إلَّا أثرًا يشهدُه « السُّيَّاحُ » من كلّ القِفَارْ !!
وضعوهُ حِلْيةً للزَّهْوِ .. واللّهوِ بأزمانِ الفتوحاتِ الكبارْ !!!
أيُّهَا الفاتحُ .. ضيَّعْنَا مفاتيحَ المدائنْ !!
.. خالدٌ .. في عصرنا يُسْجَن في قبرٍ زجاجي ...
وللفاروقِ والصِّدِّيق ذياكَ المصيرْ !!
... هذه أسيافُهُمْ مَثْلُومَةٌ تَنعىٰ إلينا
حَدَّهَا المغتال في جَوْفِ القبورْ !!
أيُّهَا الفَاتِحُ أَمْسَىٰ السيفُ ظِلًّا
ووشاحًا ساكنًا فوقَ الصدورْ !!
إنَّهُ أضحىٰ بقصرِ الحُكْمِ مرسومَ ضيافَهْ
إنَّهُ أصبحَ نَقْشًا فوقَ جُدرانِ الطُّلُولْ
كلُّ مَن يشهدهُ ..
يقرأ في جبهتِهِ عصرَ رواياتِ الأُفولْ
وأنا جئْتُ إلى قصرِكَ ضَيْفًا ما معي إلا الهَوِيَّهْ
إنَّهَا « الله ولا ربَّ سواهْ »
إنَّها « لا إلٰهَ إلا الله .. محمدٌ رسولُ اللهْ »
جِئْتُ والقلبُ بأبواب الفتوحات مُعلَّقْ

جئتُ .. لكنْ
بابُ « إسلامبولَ » في وجهيَ مُغْلَقْ !!
صَدَّني عن بابِكَ العالي
انْكِشاريٌّ بلا أيِّ هَوِيَّهْ
جاءَ مِنْ أرضِ الشَّتَاتِ الهَمَجِيَّهْ
جاءَ والصربُ تغذِّيهِ .. ويسقي من كُئُوسِ الروسِ نخْبَ البربريهْ !!
... قلتُ إنِّي ..
مِنْ جنودِ الفاتِحِ القائدِ حامي أرضِ كلِّ المسلمينْ
قال في القاعةِ لا يُوجدُ إلَّا بعضُ أشلاءَ مِن العهدِ الطعينْ
إنَّهَا رائحةٌ مِن زَمَنٍ
كَانَ .. صُعودًا .. وانحدارًا .. وانكسارًا بين أيدي الخائنينْ !!
إنَّهَا أطلالُ تاريخٍ .. وأشباحُ رجالٍ ...
... سكنُوا القبوَ الرخامِيَّ السجينْ !!
رحلَتْ ذاكرتي في مُدُنِ الشعرِ .....
وأصغتْ لأميرِ الشعراءِ في شرودٍ وعَياءْ
« اللهُ أكبرُ كمْ في الفتحِ مِن عَجَبِ
يا خالدَ التركِ جدِّدْ خالدَ العربِ »
أيُّ فتحٍ .. يا أميرَ الشعرِ في عصرِ الفتوحاتِ العقيمهْ ؟
أيُّ فتحٍ ؟ خالدَ التركِ .. أتاتوركُ ..
... لقدْ ألقىٰ بماءِ النارِ في وجهِ الخلافهْ !!
شوّه الوجهَ السماويَّ الجميلْ
جعَل البسفورَ ملهًى ...
والعرايَا ... فيهِ يسبحْنَ ويعبرْنَ مضيقَ الدردنيلْ !!

سفنُ الفتحِ ...
ويا للفتحِ أحالُوها مواخيرَ السُّكَارَىٰ العابثينْ
والمحاريبُ
فضاءاتُ نحيبٍ .. حوَّمتْ فيها طيورٌ مِن عويلْ
يَنْعِقُ البومُ بأحشاءِ الثُّريَّات المطفأهْ
آهِ قدْ كانتْ لآلافِ المصلِّين مَنَاراتٍ ...
وللمقرورِ كانتْ مِدْفَأَهْ
وهي كانت بقايا من قناديلِ الفتوحِ المرْجَأَهْ ..

* * *

أيُّهَا الفاتحُ ... « إنّا .. قدْ فتحْنا لك فتحَا ..
كانَ - بالحقِّ - مبينَا » ..
وأبو أيُّوبَ فوقَ السُّور ما زالَ يكبِّرْ
اللهُ أكبرُ ... اللهُ أكبرُ ... اللهُ أكبرْ
غَلَبَ الرومَ ... وأشجارُ الفتوحاتِ تُهَلِّلْ
والنواقيسُ تلاشتْ
والجيادُ الصافِناتُ المؤمناتُ
في ميادينِ الوَغَىٰ تَصْهَلْ .. بالفتحِ تُحمحمْ
وَعَلَىٰ الشاطئِ تختالُ المآذنْ ...
وتصلِّي وتسلِّمْ
إنَّهُ الماءُ يسبِّحْ
والنُّجَيْمَاتُ تسبِّحْ
وَالفَنَارَاتُ تُسَبِّحْ

والمجاديفُ تسبّحْ
إنَّهُ اللهُ ... فسبِّحْ باسمِ رَبِّكْ
إنَّهُ حامي الحِمَىٰ حارسُ دَرْبِكْ
أيُّهَا الفاتحْ .....
في ظلِّكَ ظلَّ السَّيْفُ مِصْباحًا مُضيئًا
حارسًا شرعةَ ربِّكْ ..
هل أعودُ الآنَ مِن وَهْمِي ..؟ أعودْ .....!!
وأعودُ حامِلًا في القلبِ مشكاةً حزينهْ !!
ضوءها الدُّرِّيُّ مِنْ نيرانِ أشلائَي يمتاحُ الوقودْ !!!
نَقْشُهَا الساكنُ في القلبِ تواريخُ لأمجادٍ طَعينَهْ
وفضاءَاتُ غماماتٍ وأسرابُ بروقٍ ورعودْ
أيُّهَا الفاتِحُ « إسلامبولَ » يغزوها الجرادْ
وجهُهَا الأبيضُ أَلْقَوْا فوْقَهُ قارَ الفَسَادْ
سَلَبُوها العِرْضَ ... والأرضَ وباعُوها جِهارًا في المزادْ
جاءَها من كلّ فَجٍّ أزرقُ النَّابِ ..
وَمَصَّاصُ الدماءْ
أحمرَ الرغبةِ في عينيْهِ أمواجُ الدهاءْ
أصفرَ البسمةِ في خطوَتِهِ ريحُ الفناءْ
أطلقَ الريحَ ... العقيمْ
أياصوفيا في مهبِّ الريحِ شيخُ جِذرٍ في الأرضِ موصولٌ بأسبابِ السماءْ
صُورةُ العذراءِ في محرابِهِ تَغْشَىٰ وجوهَ العابدينْ
مُتْحفًا صارَ لأجسادٍ عُرَاهْ ...
يصلبونَ العمرَ إثْمًا في مساءاتِ الجُنونْ

خطفتْني الريحُ ألقتْني « بوَادٍ غيرِ ذي زرعٍ » ..
سَرَاييفُو ...
جبَالٌ من جليدٍ ودماءْ ...
وتلالٌ من عِظامٍ وفَناءْ ...
... أيُّهَا الفاتح « إسلامبولَ » يغزوها الجرادْ .
في سراييفو وبيهاتشَ وفي الشيشان في القِرْم
وُحوشُ الصربِ تغتالُ الطفولهْ ...!!
في دماءِ التائبينَ الراكعينَ الساجدينَ الشهداءْ
هُمْ يخوضُونَ ويَلْهونَ بأجسادِ النساءْ
ويُبيدون الرجولهْ !!
يزرعونَ الرَّحِمَ المؤمنَ كُفرًا .. وشياطينَ عذابْ
في خلايا الطُّهْرِ يُلقونَ المنايا ... شكّلتْها نُطَفٌ
تقذِفها في الرَّحِمِ المؤمنِ أصلابُ الكلابْ !!
والصناديدُ الصِّلابْ
حُرِّقوا في دارِهم .. لا جُرْمَ إلَّا أَنْ يقولوا : ربُّنَا اللهْ ..
حمَلُوا القبرَ على أكتافِهِمْ ...
لا جُرْمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
أَكَلُوا المَيْتَةَ والعُشْبَ وماتَتْ شَمسُهُمْ
لا جرمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
شهدوا أعضاءَهم تسقُطُ مِن أجسادِهِم لا جُرْمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
بالمناشيرِ يُشَقُّون
ويقولونَ ربُّنَا اللهْ
بالوحوشِ الطائراتِ القاصِفاتِ

obeikandl.com

يُمْطَرون ويقولون رَبُّنا اللهْ ..
بالنُّجُوم المرْسَلاتِ العاصفاتِ يُصْعَقُون وينادُونَ رَبُّنَا اللهْ
بالجواري الذارياتِ الحامِلاتْ
نُذُرَ التِّيهِ وإشعاعَ المَواتْ
يُنْسَفُون وَيَصيحُونَ رَبُّنَا اللهْ
إنّهم يَحْيَوْنَ في الموتِ الشهادهْ
لهُمُ الحُسْنىٰ خلودًا وزيادهْ

* * *

أَيُّهَا الفاتِحُ إنِّي طالعٌ مِن هؤلاءْ
إنَّهم مِن شجرِ النارِ يجيئُون ومِنْ شمسِ الهدىٰ والكبرياءْ
إنَّهم ضوْءُ التجلِّي
... والخيولُ العادياتُ المُورياتْ ..
إنْ أَتَىٰ الطوفانُ واجتاحَ النهاراتِ وإيقاعَ البقاءْ
إنَّهم أحفادُكَ الغُرُّ الميامِينْ ...
يقودونَ سِباقَ الشهداءْ
أَيُّهَا الفاتِحُ إنّي ... جَمْرةٌ مِن هؤلاءْ ..
ماتَ فيَّ الشجرُ اليابِسُ
واستيقظَ فيَّ الفارسُ ... والواحدُ بالأَلْف ...
... وأَلفيتُ ظِلالَ الوَحْي ..... والتوحيدِ تَمتدُّ وتُلْقي
شُهُبَ الحقِّ وأقمارَ الإباءْ

* * *

أيُّهَا الفاتحُ .. هلْ ضاعتْ مفاتيحُ المدائنْ ؟!
... المحاريبُ فراغاتٌ وأشلاءُ مآذنْ !!
والمصلُّونَ .. يُغَلُّون .. ويَصْلَوْن سعيرَا !!
أُتُرَانا
نفتَحُ الآنَ كتابَ الماءِ .. نغتالُ الهَجِيرَا
أُتُرَانَا
... نعلنُ الآنَ اكتشافاتِ الفتوحْ
نقبضُ الآنَ علىٰ الجَمْرِ ونغتالُ السَّفُوحْ
أمْ تُرانا ...
لمْ نزلْ نغدُو خِمَاصًا .. وكمَا كُنا نروحْ !!
ومفاتيحُ المدائِنِ
لمْ نزلْ نبكِي عليها ونَنُوحْ
سورةُ الفتْحِ هجرْناهَا ..
ومزّقنْا صَدَاها ..
وتراءَتْ في مآقينا دماءٌ وقُروحْ
كلُّ أشجارِ الفتوحاتِ أراها
عارياتٍ مِن رُؤَاهَا
من ثمارِ الفتحِ ...
... في أوراقِهَا جَفّتْ دماءٌ
كنتَ تسقيها شَذَاها
أيُّهَا الفاتحُ أقبلْ .. أنتَ ما زلتَ فَتَاهَا
انزعِ السيفَ مِن القَبْو الزجاجيّ

obeikandl.com

فقد تُهْنا وتَاها .....!![1]
وإلى قوّاد جيلنا وفجرنا الآتي مع خَفْقِ البنودْ
وأقولُ للجيل الجديدْ
أقولُ للجيلِ المحصَّنِ بالعقيدةِ والمتَوَّجِ بالصَّباحْ
.. وأقولُ يا جيلَ الكِفاحْ
إنَّا بلَوْنا الليلَ والأشْبَاهَ والموتَ الموجَّلَ والجِراحْ
.. وأقولُ يا جيلَ المصاحفِ
.. يا خميرَ الأرضِ .. يا طلْقَ الولادهْ
ها أنتَ كالينْبُوعِ تَدفَّقُ في صَحَارِينا ..
.. وتمنحُنا الوثيقةَ والشَّهادَهْ ...

* * *

أنتَ الذي سيُبَدِّلُ الأوزانَ والأحزان
.. يزرعُ في العُيونِ نَخيلَها
فلَكَمْ تباطأ في الرَّحِيلِ عنِ القُرىٰ عامُ الرَّمَادَهْ

* * *

وأقولُ حَيّ علىٰ الفلاحْ
.. أقولُ حيّ علىٰ السلاحْ
فإنَّ فيكَ النبضَ يُورقُ بينَ ترتيلِ الظَّهيرة والمساءْ

---

(١) « القبو الزجاجي » : رسالة إلى « محمد الفاتح » قائد الفتوح الإسلامية في البلقان ، للدكتور : صابر عبد الدايم - جامعة أمّ القرىٰ .

obeikandl.com

.. وأقولُ يا جيلَ الفداءْ
.. أكلتْ مواسِمَنا الجنادبُ
.. واستبدَّ بنا الحُواةُ
وغَادَرَتْنَا آخِرُ السُّحبِ الحميمةِ في السماءْ

* * *

أنتَ الذي يقتاتُ جَمْرَ المرحلهْ
ها إنَّ أحبارَ اليهودِ تجمَّعُوا .. ها إنّهم حشدُوا لنا
.. فاقرأْ علىٰ تلكَ الرُّؤوسِ « الزلزلهْ »

* * *

اقرأْ علينا باسمِ رَبِّكَ ما تيسَّرَ يا بلالْ
.. الشمسُ في كَبِدِ السماءِ
ونحنُ في وَقَدِ الظهيرهْ
.. كمْ نتوق إلىٰ الظلالْ
اقرأْ علينا « المؤمنونَ » وشُدَّ قوْسَكَ ..
.. إنَّ قَوْسَكَ لا تَطِيشُ بها النِّبالْ
كمْ ذَا سألْتَ فلمْ يُجيبوا
.. كمْ سألْتَ فلمْ يُجيبوا
أنتَ وحدَكَ مَن يُجِيبُ عنِ السُّؤالْ ...

* * *

يَـأَيُّـهَا الجيلُ الجديدُ .. ويا سليلَ الطُّهْرِ ... يا بَرْدَ اليقينْ

كُنْ باسمِ رَبِّكَ قلعةً للخائفينْ .. ومنهلًا للظَّامئينْ
.. وكنْ رَصاصًا .. كُنْ قِصاصًا ..
.. كُنْ جُذورًا .. كُنْ طيورًا
كُنْ كما شاءَتْ لكَ « الأعْرافُ » في الزمنِ العَجِينْ[١]

* * *

يَـأَيُّـهَا الجيلُ الجديدُ
وقفتُ مُنْدَهِشًا علىٰ عَتَبَاتِ خُطْوَتِكَ الجديدَهْ
.. وقرأتُ نَبْضَكَ وانطلقتُ بلا عِنانْ
مِن سورة « الإسْراءِ » جئتَ .. وَمِنْ نقاءِ الفَجْرِ
.. والسبعِ المثاني
ورأيتَ مِن خلفِ الدُّخَانِ وجوهَهُمْ
.. وَبَلَوْتَ عربدةَ الدُّخَانْ
وحملتَ جَرحكَ والهجيرَ
وحملتَ جرحك والعبيرَ
فما الذي حملَتْهُ أغْرِبَةُ الزمانْ[٢] ؟!

* * *

(١) عَجَنَ فلان يَعْجِنُ عَجْنًا : ينهض معتمدًا بيديْه على الأرض كِبَرًا ، أَعْجَنَ : شاخ وأسَنَّ ، العَجِينُ : المُسِنُّ ، والمُخنث ، والأحمق .

(٢) ديوان : « إنها الصحوة .. إنها الصحوة » شعر : محمود مفلح الطبعة الأولىٰ ، القصيدة التاسعة : « جيل الصحوة » ، صـ ٣٧ – ٣٩ .

obeikandl.com